Princeton University Library
32101 075568186

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

DUE JUN 15

طبائع الاستبداد

و

مصارع الاستعباد

وهي

كلمات حق وصيحة في واد ان ذهبت اليوم مع الريح
لقد تذهب غداً بالاوتاد

محررها

هو الرحالة . ك

(طبع على رسم المدرسة الاعدادية الثانوية بأول شارع العباسيه)

طبع بمطبعة الجمالية - بمصر
(الكائنة بحارة الروم بعطفة التترى)
(لاصحابها محمد أمين الخانجى وشركاه - وأحمد عارف)

Kawakibi

طبائع الاستبداد

و

مصارع الاستعباد

وهي

كلمات حق وصيحة في واد ان ذهبت اليوم مع الريح
لقد تذهب غداً بالاوتاد

محررها

هو الرحالة . ك

(طبع على رسم المدرسة الاعدادية الثانوية بأول شارع العباسيه)

طبع بمطبعة الجمالية - بمصر

(الكائنه بحارة الروم بعطفة التتري)

(لاصحابها محمد أمين الخانجي وشركاه — وأحمد عارف)

(RECAP)
JC379
.K38

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى سائر اخوانه المرسلين . وعلى أتباعهم هداة الأمم الى الحق المبين ، ﴿وبعد﴾ فأقول وأنا المضطر للاكتتام حسب الزمان الراجي اكتفاء المطالعين الكرام بالقول عمن قال . انني في سنة ثماني عشر وثلثمائة وألف وُجِدْتُ زائراً في مصر على عهد عزيزها ومعزها حضرة سمي عم النبي العباس الثاني الناشر لواء الحرية على أكناف ملكه فنشرت في بعض الصحف الغراء ابحاثا علمية سياسية في ـ طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ـ منها مادرسته ومنها ما اقتبسته غير قاصدها ظالما بعينه ولا حكومة مخصصة إنما أردت بذلك تنبيه الغافلين لمورد الداء الدفين عسى يعرف الشرقيون أنهم هم المتسببون لما هم فيه فلا يعتبون على الاغيار ولا على الاقدار وعسى الذين فيهم بقية رمق من الحياة يستدركون شأنهم قبل الممات . ثم كلفني بعض الاعزاء لجمع شمل تلك الابحاث تعميما للفائدة فأضفت اليها بعض زيادات وحولتها الى هيئة هذا الكتاب وجعلته هدية مني للناشئة العربية المباركة الابية المعقودة آمال الامة بيمن نواصيهم ولا غرو فلا شباب الا بالشباب والله ولي المهتدين .

مقدمة

لأخفاء أن السياسة علم واسع جداً ينقسم الى فنون كثيرة ومباحث دقيقة شتى وقلما يوجد انسان يحيط بهذا العلم كما أنه قلما يوجد انسان لا يتحكك فيه.

وقد وجد في كل الامم المتمدنة علماء سياسيون تكلموا في فنون السياسة ومباحثها استطراداً في مدونات التاريخ أو الاخلاق أو الادب أو الحقوق. ولا تعرف للأقدمين كتب مخصوصة في السياسة لغير الرومانيين الجمهوريين وانما لبعضهم مؤلفات سياسية أخلاقية ككليلة ودمنه ورسائل غوريغوريوس اليوناني ومحررات سياسية دينية كنهج البلاغة وكتاب الخراج.

وأما في القرون المتوسطة فلا تؤثر مؤلفات في هذا الفن لغير علماء الاسلام فهم الفوا فيه ممزوجا بالاخلاق كالرازي والطوسي والغزالي والعلائي وهي طريقة الفرس وممزوجا بالأدب كالمعري والمتنبي وهي طريقة العرب وممزوجا بالتاريخ كابن خلدون وابن بطوطة وهي طريقة المغاربة.

أما المتأخرون من أهل أوربا فقد توسعوا في هذا العلم والفوا فيه كثيراً وأشبعوه تفصيلا حتى أنهم أفردوا بعض مباحثه في التأليف

بمجلدات ضخمة

وقد ميزوا مباحثه الى سياسة عمومية وسياسة خارجية وسياسة داخلية وسياسة ادارية وسياسة اقتصادية وسياسة حقوقية الخ وقسموا كلا منها الى أبواب شتى وأصول وفروع.

وأما المتأخرون من الشرقيين فقد وجد من الترك كثيرون الفوا في أكثر مباحثه تآليف مستقلة وممزوجة مثل أحمد جودت باشا وكمال بك وسليمان باشا وحسن فهمي باشا.

وأما العرب فقليلون ومقلون والذين يستحقون الذكر منهم فيما نعلم رفاعه بك وخير الدين باشا التونسي وأحمد فارس وسليم البستاني والمبعوث المدني.

ولكن يظهر لنا الآن ان المحررين السياسيين من العرب قد كثروا بدليل ما يظهر من منشوراتهم في الجرائد والمجلات في مواضيع كثيرة. ولهذا لاح لهذا العاجز ان أذكّر حضراتهم على لسان الجرائد العربية بموضوع هو أهم المباحث السياسية وقلّ من طرق بابه منهم الى الآن فأدعوهم الى ميدان المسابقة في خير خدمة ينيرون بها أفكار اخوانهم الشرقيين وينبهونهم لاسيما العرب منهم لما هم عنه غافلون. فيفيدونهم بالبحث والتعليل وضرب الامثال والتحليل ما هو حقيقة (داء الشرق ودوائه).

ونظرا الى مبني علم السياسة على تعريفه بانه هو « ادارة الشؤون المشتركة بمقتضى الحكمة » يكون بالطبع أول مباحث السياسة وأهمها بحث «الاستبداد» أى التصرف في الشؤون المشتركة بمقتضى الهوى .

واني أرى أن المتكلم في هذا البحث عليه أن يلاحظ تعريف وتفصيل « ماهو الاستبداد ؟ ماسببه ؟ ما أعراضه ؟ ما تشخيصه ؟ ماسيره ؟ ماانذاره ؟ مادواؤه » وكل موضوع من ذلك يتحمل تفصيلا كثيراً وبعضه يتحمل سفراً كبيراً .

وهذه المباحث من حيث مجموعها تنطوي على مسائل كثيرة أسرد منها بعض الامهات وهي؟ماطبيعة الاستبداد ـ لماذا يكون المستبد شديد الخوف ـ لماذا يستولى الجبن على رعية المستبد ـ ماتأثير الاستبداد على الدين ؟ على العلم ـ على المجد ـ على المال ـ على الاخلاق ـ على الترقي على التربية ـ من أهم أعوان المستبد ـ هل يتحمل الاستبداد ـ كيف يمكن التخلص من الاستبداد ـ بماذا ينبغي استبدال الاستبداد ـ ماهي طبائع الاستبداد .

ثم اني قبل الخوض في هذه المسائل ألخص النتائج التى تستقر عندها أفكار المتكلمين فيها وهى نتائج متحدة المدلول مختلفة التعبير على حسب اختلاف المشارب والانظار في الباحثين .

فيقول المادي . الداء القوة والدواء المقاومة: ويقول السياسي : الداء استعباد البرية والدواء استرداد الحرية . ويقول الحكيم: الداء القدرة على الاعتساف والدواء الاقتدار على الاستنصاف . ويقول الحقوقي : الداء تغلب السلطة على الشريعة والدواء تغليب الشريعة على السلطة . ويقول الرباني: الداء مشاركة الله في الجبروت والدواء توحيد الله حقاً .

هذه اقوال أهل النظر وأما أهل العزائم -- فيقول الابّى الداء مد الرقاب للسلاسل والدواء الشموخ عن الذل . ويقول الشهم: الداء التعالى على الناس باطلا والدواء تذليل المتكبرين . ويقول والمتين : الداء وجود الرؤساء بلازمام والدواء ربطهم بالقيود الثقال . يقول المفادي: الداء حب الحياة والدواء حب الموت .

ماهو الاستبداد ؟ الاستبداد لغة هو اقتصار المرء على رأي نفسه فيما تنبغي الاستشارة فيه .

يراد بالاستبداد عند اطلاقه استبداد الحكومات خاصة لانها هي أقوى العوامل التي جعلت الانسان أشقى ذوي الحياة وأما تحكم رؤساء بعض الاديان وبعض العائلات وبعض الاصناف فيوصف بالاستبداد مجازاً أو مع الاضافة .

وفي اصطلاح السياسين هو تصرف فرد أو جمع في حقوق

قوم بلا خوف تبعة.

وقد تطرق مزيدات على هذا المعنى فيستعملون في مقام كلمة (استبداد) كلمات استبعاد . واعتساف . وتسلط . وتحكم . في مقابلتها كلمات شرع مصون . وحقوق محترمة . وحس مشترك . وحياة طيبة .

ويستعملون في مقام صفة (مستبد) كلمات حاكم بأمره . وحاكم مطلق . وظالم . وجبار وفي مقابلة حكومة مستبدة كلمات عادلة . ومسئولة . ومقيدة . ودستورية .

ويستعملون في مقام صفة (مستبد عليهم) كلمات أسرى . وأذلاء . ومستصغرين . ومستنبتين [1] وفي مقابلتهما محتسبون . وأباءة . وأحرار . وأحياء .

هذا تعريف الاستبداد بأسلوب ذكر المرادفات والمقابلات وأما تعريفه بالوصف فهو أن الاستبداد صفة للحكومة المطلقة العنان التي تتصرف في شؤون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب محققين

---

١) الاستنبات أو التنبت من اصطلاحات سواس الافرنج يريدون به الحياة الشبيهة بحياة النبات .

ومنشأ الاستبداد إما هو من كون الحكومة غير مكلفة بتطبيق تصرفها على شريعة أو على أمثلة أو على ارادة الامة وهذه حالة الحكومات المطلقة . وإما من كونها مقيدة بنوع من ذلك ولكنها تملك بنفوذها ابطال قوة القيد بما تهوى وهذه حالة أكثر الحكومات التي تسمى نفسها بالمقيدة .

واشكال الحكومة المستبدة كثيرة ليس هذا البحث محل تفصيلها . ويكفي هنا الاشارة الى أن صفة الاستبداد كما تشمل حكومة الحاكم الفرد المطلق الذى تولى الحكم بالغلبة أو الوارثة تشمل أيضاً الحاكم الفرد المقيد الوارث أو المنتخب متى كان غير محاسب . وكذلك تشمل حكومة الجمع ولو منتخباً لأن الاشتراك في الرأى لا يدفع الاستبداد وانما قد يعدله نوعاً وقد يكون أحكم وأضر من استبداد الفرد . ويشمل أيضاً الحكومة الدستورية المفرقة فيها قوة التشريع عن قوة التنفيذ لان ذلك أيضاً لا يرفع الاستبداد ولا يخففه مالم يكن المنفذون مسئولين لدى المشرعين وهؤلاء مسئولون لدى الامة التي تعرف أن تراقب وان تتقاضى الحساب .

وخلاصة ما تقدم أن الحكومة من أى نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد مالم تكن تحت المراقبة الشديدة والمحاسبة التي لا تسامح فيها كما جرى في صدر الاسلام فيما نقم على عثمان

ابن عفان رضى الله عنه وكما جرى في عهد هذه الجمهورية الحاضرة في فرنسا في مسائل النياشين وبناما ودريفوس .

ومن الأمور المقررة أنه ما من حكومة عادلة تأمن المسئولية والمؤاخذة بسبب من أسباب غفلة الأمة أو اغفالها لها الا وتسارع الى التلبس بصفة الاستبداد وبعد أن تتمكن فيه لا تتركه وفي خدمتها شئ من القوتين الهائلتين المهولتين جهالة الأمة والجنود المنظمة .

ولا يعهد فى تاريخ حكومة من الحكومات المدنية استمرار حكومة مسئولة مدة أكثر من نصف قرن الى غاية قرن ونصف . وما شذّ من ذلك سوى الحكومة الحاضرة في انكلترا والسبب يقظة الانكليز الذين لا يسكرهم انتصار، ولا يخملهم انكسار . وهذه حضرة الملكة ڤيكتوريا لو تسنى لها الاستبداد الآن لغنمته ولو لأجل عشرة أيام من بقية عمرها . ولكن هيهات أن تظفر بغرة من قومها تستلم فيها زمام الجيش .

أما الحكومة البدوية التي تتألف رعيتها كلها أو أكثرها من عشائر يقطنون البادية يسهل عليهم الرحيل والتفرق متى مست حكومتهم حريتهم وسامتهم ضيما ولم يقووا على الاستنصاف فهذه الحكومات قلما اندفعت الى الاستبداد .

وأقرب مثال لذلك أهل جزيرة العرب فانهم لا يكادون

يعرفون الاستبداد من قبل عهد ملوك تبع وحمير وغسان الى الآن الا فترات قليلة.

وقد تكلم الحكماء لا سيما المتأخرون في وصف الاستبداد ودوائه بجمل بليغة بديعة تصور في الاذهان شقاء الانسان كأنها تقول له هذا عدوك فانظر ماذا تصنع . ومن هذه الجمل قولهم :

« المستبد يتحكم في شؤون الناس بارادته لا بأرادتهم ويحاكمهم بهواه لا بشريعتهم ويعلم من نفسه أنه الغاصب المتعدي فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس يسدها عن النطق بالحق والتداعي لمطالبته . »

« المستبد عدو الحق عدو الحرية وقاتلهما والحق أبو البشر والحرية أمهم والعوام صبية أيتام نيام لا يعلمون شيئاً والعلماء هم اخوتهم الراشدون إن أيقظوهم هبوا وان دعوهم لبوا » .

« المستبد يتجاوز الحد لأنه لا يرى حاجزاً فلو رأى الظالم على جنب المظلوم سيفاً لما أقدم على الظلم كما قيل الاستعداد للحرب يمنع الحرب . »

« المستبد انسان مستعد بالفطرة للخير والشر فعلى الرعية أن تكون مستعدة لأن تعرف ما هو الخير وما هو الشر .

مستعدة لأن تقول لا أريد الشر . مستعدة لأن تتبع القول الذي ليس وراءه بالعمل والقول افعل هو موجة في الهواء على أن مجرد

الاستعداد للفعل فعل يكفي شر الاستبداد.

« المستبد انسان والانسان أكثر ما يألف الغنم والكلاب. فالمستبد يود أن تكون رعيته كالغنم درّاً وطاعة وكالكلاب تذللاً وتملقاً. وعلى الرعية أن تكون كالخيل ان خُدمت خدمت وان ضربت شرست بل عليها أن تعرف مقامها هل خلقت خادمة للمستبد أم هي جاءت به ليخدمها فاستخدمها. والرعية العاقلة تقيد وحش الاستبداد بزمام تستميت دون بقائه في يدها التأمن من بطشه فان شمخ هزت به الزمام وان صال ربطته وفي هذا المقدار كفاية لمعرفة ماهو الاستبداد بالاجمال والمباحث الآتية كافلة بالتفصيل.

﴿ الاستبداد والدين ﴾

ورد في المقدمة والتعريف بعض ايضاح للمراد من الاستبداد. على أن معرفة طبائع الاستبداد اجمالا لا تتم الا باستيفاء الكلام على المباحث التي أشرت اليها ومنها بحث تأثير الاستبداد على الدين واني تحيرت أن أتكلم في هذه المواضيع اجمالا واقتضابا على اسلوب شبيه بالخطابة فاقول:

قد تضافرت آراء أكثر المحررين السياسيين من الافرنج على أن الاستبداد السياسي متولد من الاستبداد الديني والبعض القليل منهم يقول ان لم يكن هناك توليد فلا شك أنهما أخوان أو صنوان قويان بينهما رابطة

الحاجة على التعاون لتذليل الانسان. والمشاكلة بينهما ظاهرة من أن أحدهما حاكم فى عالم القلوب والآخر متحكم في مملكة الاجسام.

والفريقان مصيبان في حكمهم بالنظر الى أساطير الاولين والقسم التاريخي من التوراة والرسائل المضافة الى الانجيل. ومخطئون مطلقاً في حق الاقسام التعليمية منها كما هم مخطئون في نظرهم ان القرآن جاء باستبداد مؤيد للاستبداد السياسي أو مؤيد به ولعلهم يعذرون اذا قالوا نحن لا ندرك دقائق القرآن نظراً لخفائها علينا في طي اشاراته وبلاغته. وانما نبني نتيجتنا على مقدمات ما نشاهد عليه المسلمين اليوم من استعانة مستبديهم بالدين.

يقول هؤلاء المحررين: أن التعاليم الدينية ومنها الكتب السماوية تدعو البشر الى خشية قوة عظيمة هائلة لا تدرك كنهها العقول تتهدد الانسان بكل مصيبة في الحياة وعذاب مديد أو خالد بعد الممات تهديداً ترتعد منه الفرائص فتخور القوى وتذهل منه العقول فتستسلم للخبل والاوهام. ثم تفتح هذه التعاليم أبوابا للنجاة من تلك المخاوف عليها حجاب من البشر هم الاحبار والقسس والمشايخ. ودخولها التعظيم الراسب بالقلب والقالب أى تقديم جزية احترام مع ذلة اعتراف أو ثمن غفران أو كفالة الرزق من بيت المال لاولئك الحجاب الذين بعضهم يحجزون حتى الارواح من لقاء ربها مالم يأخذوا عنها رسوم

المرور الى القبور وفدية الخلاص من الاعتراف

ويقولون ان المستبدين من السياسين يبنون استبدادهم على أساس من هذا القبيل أيضاً لانهم يسترهبون الناس بالتعالي الشخصي والتشامخ الحسي ويذللونهم بالقهر والقوة وسلب الاموال حتى يجعلوهم خاضعين لهم عاملين لاجلهم كأنهم خلقوا من جملة الانعام نصيبهم من الحياة ما يقتضيه حفظ النوع فقط.

ويرون أن هذا التشاكل في بناء ونتائج الاستبدادين الديني والسياسي جعلهما في مثل فرنسا خارج باريس مشتركين في العمل كأنهما يدان متعاونتان. وجعلهما في مثل روسيا مشتبكين في الوظيفة كأنهما القلم والقرطاس اذا استعملا في تسجيل الشقاء على الناس

ويقررون أن هذا التشاكل بين القوتين ينجر بعوام البشر وهم السواد الاعظم الى التباس الاله المعبود والجبار عليهم واختلاطهما في مضايق أذهانهم من حيث التشابه في استحقاق التعظيم والرفعة عن السؤال والمؤاخذة على الافعال. بناء عليه لا يرون لانفسهم حقاً في مراقبة المستبد.

وبعبارة أخرى يجد العوام معبودهم وجبارهم مشتركين في كثير من الحالات والاسماء والصفات وهم هم ليس من شأنهم أن يفرقوا مثلا بين الفعال المطلق والحاكم بأمره وبين «لا يسئل عما يفعل» و«غير مسئول»

وبين «المنعم وولى النعم» وبين «جل شأنه» و «جليل الشأن» بناء عليه يعظمون الجبابرة تعظيمهم لله .

وهذه الحال هى التي سهلت فى الامم الغابرة المنحطة دعوى بعض المستبدين الالوهية على مراتب مختلفة حسب استعداد اذهان الرعية حتى يقال انه مامن مستبد سياسي الا ويتخذله صفة قدسية يشارك بها الله أو تعطيه مقام ذى علاقة مع الله . ولا أقل من أن يتخذ بطانة من أهل الدين المستبدين يعينونه على ظلم الناس باسم الله

ويعللون أن قيام المستبدين من امثال «ابناء داود وقسطنطين» في تأييد نشر الدين بين رعاياهم وانتصار مثل «فيليب الثاني» الاسباني و «هانرى الثامن» الانكليزي للدين حتى بتشكيل مجالس انكليز سيون وكالحاكم الفاطمي والسلاطين الاعاجم المتنصرين لغلاة الصوفية والبانين التكايا لم يكن ذلك كله الا بقصد الاستعانة بالدين أو باهل الدين على ظلم المساكين .

ويحكمون بان بين الاستبدادين السياسي والديني مقارنة لا تنفك متى وجد أحدهما في أمة جر الآخر اليه أو متى زال زال رفيقه وان ضعف أى صلح أحدهما صلح الثاني . وشواهد ذلك كثيرة جداً لا يخلو منها زمان ولا مكان وكلها تبرهن على أن الدين أقوى تأثيراً من السياسة ويمثلون بالسكسون فان البروتستانية

أثرت في الاصلاح السياسي أكثر من تأثير الحرية السياسية في الاصلاح عند الكاثوليك .

والحاصل ان كل المدققين السياسيين يرون أن السياسة والدين يمشيان متكاتفين ويعتبرون أن اصلاح الدين أسهل منالا وأقوى وأقرب طريقاً للاصلاح السياسي .

ويرون ان أول من سهل هذا المسلك حكماء اليونان حيث تحيلوا على ملوكهم المستبدين في حملهم على قبول الاشتراك في السياسة بأحيائهم عقدة الاشتراك في الالوهية أخذوها عن الاشوريين ومزجوها باساطير المصريين بصورة تخصيص العدالة بالله والحرب بالله والبحار بالله والامطار بالله الى غير ذلك من التوزيع وجعلوا لالله الالهة حق النظارة عليهم وحق الترجيح عند وقوع الاختلاف بينهم .

وبعد تمكن هذه العقيدة في الاذهان بما البست من سحر البيان سهل على أولئك الحكماء دفعهم الناس الى مطالبة جبابرتهم بالنزول من مقام الانفرادوبان تكون ادارة الأرض كادارة السماء فانصاع ملوكهم لذلك مكرهين . وهذه هي الوسيلة العظمى التي مكنت اليونان أخيرا من اقامة جمهوريات أثيناو اسبارطة . وكذلك فعل الرومان . وهذا الأصل لم يزل المثال القديم لأصول توزيع الادارة في الحكومات الملكية والجمهوريات على أنواعها الى هذا العهد .

انما هذه الوسيلة أي التشريك فضلا عن كونها باطلة في ذاتها تنتج عنها أخيراً ردفعل أضر كثيراً. وذلك أنها فتحت للمشعوذين من سائر الطبقات باباً واسعاً لدعوى شيء من خصائص الالوهية كالصفات القدسية والتصرفات الروحية وكان قبل ذلك لا يتهجم على مثلها غير أفراد من الجبابرة ولملاءمة هذه المفسدة لطباع البشر من وجوه كثيرة ليس بحثنا هذا محلها انتشرت وعمت وجندت جيشا عرمرما يخدم المستبدين.

وقد جاءت التوراة بالنشاط والنظام رافعة عقيدة التشريك في أسباط بني اسرائيل مستبدلة مثلا أسماء الالهة بالملائكة ولكن لم يرض بعض ملوك بني اسرائيل بالتوحيد فأفسدوه ثم جاء الانجيل بالدعة والحلم مؤيداً أيضاً لناموس التوحيد ولكن لم يقو دعاته الاولون على تفهيم تلك الاقوام المنحطة الذين بادروا لقبول النصرانية قبل الأمم المترقية ان الابوة والبنوة صفتان مجازيتان يعبر بهما عن معنى لا يقبله العقل الا تسليما كمسألة القدر في الاسلامية بل تلقوها منهم بمعنى والدحقيقي لأنهم كانوا قد ألفوا الاعتقاد في بعض جبابرتهم أنهم أبناء الله فكبر عليهم في عيسى عليه السلام صفة هي دون مقام أولئك الملوك.

ثم ان النصرانية ما لبثت ان تلبست ثوباً غير ثوبها كما هو شأن سائر الاديان التي سلفتها فتوسعت برسائل بولس ونحوها وصارت تعظم رجال الكهنوت الى درجة اعتقاد النيابة والعصمة وقوة التشريع مما رفض

أكثره أخيراً البورتستان أي الراجعون في الاحكام لاصل الانجيل .

ثم جاء الاسلام بالحكمة والعزم هادماً للتشريك بالكلية ومحكماً لقواعد الحرية السياسية المتوسطة بين الديموقراطية والاريستوقراطية فأسس التوحيد . وأظهر للوجود حكومة كحكومة الخلفاء الراشدين التي لم يسمح الزمان بمثال لها بين البشر حتى ولم يخلفهم فيها بين المسلمين أنفسهم خلف الا بعض شواذ كعمر بن عبد العزيز والمهتدي العباسي ونور الدين الشهيد .

فان هؤلاء الخلفاء الراشدين فهموا معنى القرآن وعملوا به واتخذوه اماما فأنشأوا حكومة قضت بالتساوي حتى بينهم أنفسهم وبين فقراء الامة في نعيم الحياة وشظفها واحدثوا في المسلمين عواطف اخوة وروابط هيئة اجتماعية وحالات معيشة اشتراكية لا تكاد توجد بين أشقاء يعيشون باعالة أب واحد وفي حضانة أم واحدة

وهذا القرآن الكريم مشحون بتعاليم اماتة الاستبداد واحياء العدل والتساوي حتي في القصص منه . ومن جملتها قول بلقيس ملكة سبأ من عرب تبع تخاطب أشراف قومها « يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون . قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد . والأمر اليك فانظري ماذا تأمرين . قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك

يفعلون » .

فهذه القصة تعلم كيف ينبغي ان يستشير الملوك الملأ أي أشراف الرعية وان لا يقطعوا أمراً الا برأيهم وان تحفظ القوة والبأس في يد الرعية وان يخصص الملوك بالتنفيذ ويكرموا بنسبة الأمر اليهم وتعلن شأن الملوك المستبدين واستحقاقهم للمؤاخذة والتقبيح .

ومن هذا الباب أيضاً ماورد في قصة موسى عليه السلام مع فرعون في قوله تعالى (وقال الملأ من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم يريد ان يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون) أي قال الاشراف بعضهم لبعض ماذا رأيكم (قالوا) خطابا لفرعون وهو قرارهم (أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم) ثم وصف مذاكرتهم بقوله تعالى (فتنازعوا أمرهم) أي رأيهم (بينهم وأسروا النجوى) أي أفضت مذاكرتهم العلنية الى النزاع فاجروا مذاكرة سرية طبق مايجري الى الآن في مجالس الشورى العمومية .

بناء عليه لا مجال لرمي الاسلامية بالاستبداد بعد امثال هذه الآيات البينات المفسرات للمراد من قوله تعالى (وشاورهم في الأمر) أي في الشأن وكذلك قوله تعالى (وأمرهم شورى بينهم) أي شأنهم وقوله تعالى (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) أي أصحاب الشأن منكم وهم العلماء والرؤساء

على ما اتفق عليه أكثر المفسرين.

ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى « وما أمر فرعون » أي ماشأنه وحديث « أميري من الملائكة جبريل » أي مشاوري

وقد ظهر من هذا أن الاسلامية مؤسسة على أصول الادارة الديموقراطية أي العمومية والشورى الاريستوقراطية أي شورى الاشراف. وقد مضى عهد النبي عليه الصلاة والسلام وعهد الخلفاء الراشدين على هذه الأصول بأتم وأكمل صورها خصوصاً وانه لا يوجد في الاسلامية نفوذ ديني مطلقاً في غير مسائل اقامة الدين. هذا الدين الحر السهل السمح الذي رفع الاصر والاغلال وابادالميزة والاستبداد. الدين الذي ظلمه الجاهلون فهجروا حكمة القرآن ودفنوها في قبور الهوان. الدين الذي فقد الانصار والابرار والحكماء الاخيار فسطا عليه المستبدون واتخذوه وسيلة لتفريق الكلمة وتقسيم الامة شيعاً وجعلوه آلة لأهوائهم فضيعوه وضيعوا أهله بالتفريع والتوسيع والتشديد والتشويش وادخال ماليس منه فيه كما فعل أصحاب الاديان السائرة حتى جعلوه ديناً لا يقوى أحد ممن يتوهم ان كل مادونوه هو منه على القيام بواجباته وآدابه ومزيداته التي صارت تشتبه مراتبها على العوام والخاص

وبذلك انفتح على الامة باب التلوم على النفس واعتقاد التقصير

المطلق وان لانجاة ولامخرج ولاامكان لمحاسبة النفس . وهذه الحال تصغر النفس وتخفت الصوت وتمنع الجسارة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المنوط بها قيام الدين وقيام النظام والعدل.

وهذا الاهمال للمراقبة والسيطرة والمؤاخذة والسؤال أوسع لامراء الاسلام مجال الاستبداد وتجاوز الحدود. وبهذا وذاك ظهر حكم حديث (هلك المتنطعون) أي المتشددون في الدين وحديث (لتأمرنّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليستعملن الله عليكم شراركم فليسومونكم سوء العذاب) والله الملهم للصواب .

وقد جمع بعضهم جملة مما اقتبسه واخذه المسلمون عن غيرهم وليس هو من دينهم فقال .

« اقتبسوا » مقام البابوية وتمثيله . باحترام الأعاظم احترام عبادة. وطاعة الكبراء على العمياء . وضاهوا مقامات البطارقة والكردينالية والشهداء وأسقفية كل بلد. وحاكوا مظاهر القديسين وعجائبهم والدعاة المبشرين وصبرهم . والرهبنات ورؤسائها . وحالة الاديرة وبادريتها. والرهبنة أي التظاهر بالفقر ورسومها. والحمية وتوقيتها . وقلدوا رجال الكهنوت في مراتبهم وتميزهم في ألبستهم وشعورهم . وشاكلوا. مراسم الكنائس وزينتها والبيع واحتفالاتها والترنحات ووزنها والترنمات وأصولها واقامة الكنائس على القبور

وشد الرحال لزيارتها . والاسراج عليها . والخضوع لديها وتعليق الآمال بسكانها . وأخذوا التبرك بالآثار كالقدح والحربة والدستار من احترام الذخيرة وقدسية العكاز وكذلك امرار اليد على الصدر عند ذكر الصالحين من امرارها على الصدر لاشارة التصليب (وانتزعوا) الحقيقة من السر . ووحدة الوجود من الحلول . والخلافة من الرسم . والسقيا من تناول القربان . والمولد من الميلاد . وحفلته من الاعياد ورفع الاعلام من حمل الصلبان . وتعليق ألواح الأسماء المصدرة بالنداء على الجدران من تعليق الصور والتماثيل . والاستفاضة والمراقبة من التوجه بالقلوب انحناء امام الاصنام . (ومنعوا) الاستهداء من نصوص الكتاب والسنة من حظر الكهنة الكاثوليك التفهم من الانجيل على غيرهم وسد اليهود باب الأخذ من التوراة وتمسكهم بالتلمود (وجاؤا) من المجوسية باستطلاع الغيب من الفلك وبخشية أوضاع الكواكب وباتخاذ أشكالها شعاراً وباحترام النار ومواقدها (ولفقوا) من الاساطير والاسرائيليات أنواعاً من القربات وعلوما سموها لدنيات .

ومن تأمل في هذه المقتبسات يجد أكثرها أمهات للاستبداد وسلاسل للاستعباد وهكذا تفسد الاديان ويشقى الانسان ولا حول ولا قوة الا بالله .

وكذلك يقال عن مبتدعي النصارى من أن أكثر ما اعتبره المتأخرون منهم من الشعائر الدينية حتى مسألة التثليث لا أصل له فيما ورد عن نفس المسيح عليه السلام انما هو مزيدات وترتيبات قليلها مبتدع وكثيرها متبع . وقد اكتشف العلماء الآثاريون من الصحف والصفائح التي وجدت في نواويس المصريين الاقدمين على مآخذ أكثرها . وكذلك وجدوا لمزيدات التلمود وبدع الاحبار أصولا في الاساطير والآثار والالواح الاشورية وترقوا في التطبيق والتدقيق الى أن وجدوا معظم الخرافات المضافة الى أصول عامة الاديان في الشرق الادني مقتبسة من الوضعيات المنسوبة لحكماء الشرق الاقصى .

والخلاصة أن البدع التي شوشت الايمان وشوهت الأديان تكاد كلها تتسلسل بعضها من بعض وترمي جميعها الى غرض واحد هو المراد ألا وهو الاستبداد .

والناظر المدقق في تاريخ الاسلام يجد للمستبدين من الخلفاء والملوك الأولين والعلماء المنافقين أفعالا مريعة في اطفاء نور العلم ويجد أنهم طالما أرادوا أن يطفئوا نور الله ولكن أبى الله الا أن يتم نوره فحفظ للمسلمين كتابه الكريم الذى هو شمس العلوم وكنز الحكم من أن تمسه يد التحريف وهي احدى معجزاته لأنه قال فيه (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) فما مسه المنافقون الا بالتأويل وهذا

أيضاً من معجزاته لأنه أخبر عن ذلك في قوله (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) .

واني أمثل للمطالعين ما فعله الاستبداد في العلم والاسلام بما حجر على العلماء الحكماء من أن يفسروا قسمي الآلاء والاخلاق من القرآن تفسيراً مدققاً لأنهم كانوا يخافون مخالفة رأى بعض السلف القاصرين في العلم فيكفرون فيقتلون وهذه مسألة اعجاز القرآن وهي أهم مسألة فى الدين لم يقدروا أن يوفوها حقها من البحث واقتصروا على ما قاله بعض السلف انها هي فصاحته وبلاغته واخباره عن أن الروم من بعد غلبهم سيغلبون .

مع أنه لو أطلق للعلماء عنان التدقيق وحرية الرأي والتأليف كما أطلق لأهل التأويل والخرافات لرأوا في ألوف من آيات القرآن ألوف آيات من الاعجاز . لرأوا فيه كل يوم آية تتجدد مع الزمان والحدثان تبرهن إعجازه بصدق قوله (ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين) برهان عيان لا مجرد تسليم وايمان .

ومثال ذلك أن العلم كشف في هذه القرون الاخيرة حقائق وطبائع كثيرة تعزى لكاشفيها ومخترعيها من علماء أوروبا وأمريكا والمدقق في القرآن يجد أكثرها ورد التصريح أو التلميح به في القرآن منذ ثلاثة عشر قرنا وما بقيت مستورة تحت غشاء من الخفاء الا لتكون

عندظهورها معجزة للقرآن شاهدة بأنه كلام رب لا يعلم الغيب سواه وذلك أنهم قد كشفوا أن مادة الكون هي الاثير وقد وصف القرآن بدأ التكوين فقال (واستوى الى السماء وهي دخان).

وكشفوا أن الكائنات فى حركة دائمة دائبة والقرآن يقول (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها) الى أن يقول (وكل في فلك يسبحون).

وحققوا ان الأرض منفتقة في النظام الشمسي والقرآن يقول (ان السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما).

وحققوا أن القمر منشق من الأرض والقرآن يقول (أفلا يرون أنا نأتي الارض ننقصها من أطرافها) ويقول (اقتربت الساعة وانشق القمر)

وحققوا أن طبقات الأرض سبع والقرآن يقول (خلق سبع سموات طباقا ومن الأرض مثلهن).

وحققوا أنه لولا الجبال لاقتضى الثقل النوعي أن تميد الأرض أي ترتج في دورتها والقرآن يقول (والقى في الأرض رواسي ان تميد بكم).

وكشفوا ان التغيير فى التركيب الكيماوي بل والمعنوي ناشئ عن تخالف نسبة المقادير والقرآن يقول (كل شئ عنده بمقدار).

وكشفوا أن للجمادات حياة قائمة بماء التبلور والقرآن يقول (وجعلنا من الماء كل شئ حيّ).

وحققوا ان العالم العضوي ومنه الانسان ترقى من الجماد والقرآن

يقول (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين).

وكشفوا ناموس اللقاح العام في النبات والقرآن يقول (خلق الازواج كلها مما تنبت الأرض) ويقول (فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى) ويقول (اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) ويقول (ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين).

وكشفوا طريقة امساك الظل أي التصوير الشمسي والقرآن يقول (ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلا).

وكشفوا تسيير السفن والمركبات بالبخار والكهرباء والقرآن يقول بعد ذكره الدواب والجواري بالريح (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون).

وكشفوا وجود المكروب وتأثيره الجدري وغيره من المرض والقرآن يقول (وأرسل عليهم طيراً أبابيل) أي متتابعة مجتمعة (ترميهم بحجارة من سجيل) أي من طين المستنقعات اليابس الى غير ذلك من الآيات الكثيرة المحققة لبعض مكتشفات علم الهيئة والنواميس الطبيعية . وبالقياس على ما تقدم ذكره يقتضي أن كثيراً من آياته سينكشف سرها في المستقبل في وقتها المرهون تجديداً لاعجازه مادام الزمان وما كرّ الجديدان.

﴿ الاستبداد والعلم ﴾

ما أشبه المستبد في نسبته الى رعيته بالوصي الخائن القوي على أيتام أغنياء . يتصرف في أموالهم وأنفسهم كما يهوى ماداموا قاصرين فكما انه ليس من صالح الوصي ان يبلغ الايتام رشدهم . كذلك ليس من غرض المستبد أن تتنور الرعية بالعلم .

لا يخفى على المستبد ان لا استعباد ولا اعتساف مالم تكن الرعية حمقاء تخبط في ظلامة جهل وتيه عماء . فلو كان المستبد طيراً لكان خفاشاً يصطاد هوام العوام في ظلام الجهل ولو كان وحشا لكان ابن آوى يتلقف دواجن الحواضر في غشاء الليل .

العلم قبسة من نور الله وقد خلق الله النور كشافاً مبصراً ولاداً للحرارة والقوة وجعل العلم مثله وضاحاً للخير فضاحا للشر يولد في النفوس حرارة وفي الرؤس شهامة .

المستبد لا يخشى علوم اللغة المقومة للسان اذا لم يكن وراء اللسان حكمة حماس تعقد الالوية أو سحر بيان يفل الجيوش لانه يعرف أن الزمان ضنين بان تلد الامهات كثيراً من امثال الكميت وحسان أو مونتسكيو وشيللار .

وكذلك لا يخاف المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد لاعتقاده

انها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة وانما يتلهى بها المتهوسون للعلم فاذا نبغ فيهم البعض ونالوا شهرة بين العوام لا يعدم وسيلة لاستخدامهم في تأييد أمره بنحو سد أفواههم بلقيمات من فتات مائدة الاستبداد.

نعم ترتعد فرائص المستبد من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية وحقوق الامم وسياسة المدنية والتاريخ المفصل والخطابة الادبية وغيرها من العلوم الممزقة للغيوم المبسقة الشموس المحرقة الرؤس.

ويقال بالاجمال ان المستبد لا يخاف من العلوم كلها بل من التي توسع العقول وتعرف الانسان ماهو الانسان وماهي حقوقه وهل هو مغبون وكيف الطلب وكيف النوال وكيف الحفظ. المستبد عاشق للخيانة والعلماء عواذله . المستبد سارق ومخادع والعلماء منبهون محذرون وللمستبد أعمال وصوالح لا يفسدها عليه الا العلماء .

المستبد كما يبغض العلم لنتائجه يبغضه لذاته لأن للعلم سلطاناً أقوى من كل سلطان فلا بد للمستبد من أن يستحقر نفسه كلما وقعت عينه على من هو أرقى منه علماً . ولذلك لا يحب المستبد أن يرى وجه عالم ذكي فاذا اضطر لمثل الطبيب والمهندس يختار المتصاغر المتملق. وعلى هذه القاعدة بنى ابن خلدون قوله « فاز المتملقون » بل هذه طبيعة في كل المتكبرين وعليها مبني ثنائهم على كل من يكون مسكيناً خاملاً لا يرجى خير ولا شر.

وينتج مما تقدم أن بين الاستبداد والعلم حرباً دائمة وطراداً مستمراً

يسعى العلماء في نشر العلم ويجتهد المستبد في اطفاء نوره والطرفان يتجاذبان العوام ومن هم العوام ؟ هم أولئك الذين اذا جهلوا خافوا واذا خافوا استسلموا . وهم الذين متى علموا قالوا ومتى قالوا فعلوا .

العوام هم قوت المستبد وقوته بهم عليهم يصول وبهم على غيرهم يطول . يأسرهم فيتهللون لشوكته ويغصب اموالهم فيحمدونه على ابقاء الحياة ويهينهم فيثنون على رفعته ويغرى بعضهم على بعض فيفتخرون بسياسته واذا أسرف بأموالهم يقولون عنه انه كريم واذا قتل ولم يمثل يعتبرونه رحيما ويسوقهم الى خطر الموت فيطيعونه حذر التأديب وان نقم عليهم منهم بعض الاباة قاتلوهم كأنهم بغاة .

والحاصل أن العوام يذبحون أنفسهم بأيديهم بسبب الخوف الناشئ عن الجهل فاذا ارتفع الجهل زال الخوف وانقلب الوضع أي انقلب المستبد رغم طبعه الى وكيل أمين يهاب الحساب ورئيس عادل يخشى الانتقام وأب حليم يتلذذ بالتحابب .

وحينئذ تنال الأمة حياة رضية هنية . حياة رخاء ونماء . حياة عز وسعادة . ويكون حظ الرئيس من ذلك رأس الحظوظ بعد أن كان في دور الاستبداد أشقى العباد لأنه كان على الدوام محاطاً بالاعداء ملحوظاً بالبغضاء غير أمين على حياته طرفة عين .

ولا شك أن خوف المستبد من نقمة رعيته أكثر من خوفهم بأسه

لأن خوفه ينشأ عن علم وخوفهم ناشئ عن جهل. وخوفه من انتقام بحق وخوفهم عن توهم التخاذل. وخوفه على فقد حياته وسلطانه وخوفهم على لقيمات من النبات وعلى وطن يألفون غيره في أيام.

وكلما زاد المستبد ظلماً واعتسافا زاد خوفه من رعيته ومن حاشيته وحتى من هو اجسه وخيالاته. وكثيراً ماتختم حياة المستبدين الضعيفي القلوب منهم بالجنون.

ومن قواعد المؤرخين المدققين ان أحدهم اذا أراد الموازنة بين مستبدين كثيرون وتيمور مثلا يكفي أن يوازن درجة ما كانا عليه من التحذر والتحفظ واذا أراد المفاضلة بين عادلين كأنوشروان وصلاح الدين يوازن مرتبتي أمنهما في قوميهما.

لما كانت أكثر الديانات القديمة مؤسسة على مبدأي الخير والشر كالنور والظلام والشمس وزحل والعقل والشيطان رأت بعض الامم الغابرة ان أضر شئ على الانسان هو الجهل وأضر آثار الجهل هو الخوف فعملت هيكلا مخصصاً للخوف يعبد اتقاء لشره.

قال أحد المحررين السياسيين اني أرى قصر المستبد في كل زمان هو هيكل الخوف عينه. فالملك الجبار هو المعبود وأعوانه هم الكهنة ومكتبته هي المذبح المقدس والاقلام هي السكاكين وعبارات التعظيم هي الصلوات والناس هم الاسرى الذين يقدمون قرابين.

ويقول أهل النظر في أحوال البشر ان خير مايستدل به على صفة السياسة في الامم شنآن الملوك وفخامة القصور وعظمة الحفلات ومراسم التشريفات .

يقولون انه كذلك يستدل على عراقة الامة في الاستبداد أو الحرية باستنطاق لغتها هل هي كثيرة الفاظ التعظيم غنية في عبارات الخضوع كالفارسية مثلا أم فقيرة في هذا الباب كالعربية .

والخلاصة أن الاستبداد والعلم ضدان متغالبان فكل ادارة مستبدة تسعى جهدها في اطفاء نور العلم وحصر الرعية في حالك الجهل . وكذلك بعض العلماء الذين ينبتون في مضايق صخور الاستبداد يسعون جهدهم في تنوير أفكار الناس . والغالب ان رجال الاستبداد يطاردون رجال العلم وينكلون بهم فالسعيد منهم من يتمكن من مهاجرة دياره وهذا سبب ان كل الانبياء العظام عليهم الصلاة والسلام وأكثر العلماء الاعلام والادباء النبلاء تقلبوا في البلاد وماتوا غرباء .

قال المدققون ان اخوف مايخافه المستبدون الغربيون من العلم ان يعرف الناس حقيقة أن الحرية أفضل من الحياة وان يعرفوا النفس وعزها والشرف وعظمته والحقوق وكيف تحفظ والظلم وكيف يرفع والانسانية وماهي وظائفها والرحمة وماهي لذاتها .

أما المستبدون الشرقيون وخوفهم من العلم فافئدتهم هواء

يرتجف من صولة العلم وكأن أجسامهم من بارود والعلم نار . نعم يخافون من العلم حتى من علم الناس معنى كلمة «لا إله الا الله» ولماذا كانت أفضل الذكر ولماذا بنى عليها الاسلام . بني الاسلام بل وكافة الاديان على لا إله الا الله ومعنى ذلك انه لا يعبد حقاً سواه أي سوى الصانع الاعظم ومعنى العبادة التذلل والخضوع فيكون معنى لا إله الا الله «لا يستحق التذلل والخضوع شيء غير الله» فهل والحالة هذه يناسب المستبدين ان يعلم عبيدهم ذلك ويعملوا بمقتضاه كلا ثم كلا .

حتى ان هذا العلم لا يناسب صغار المستبدين كخدمة الاديان الأقوياء أو الاغبياء والآباء الجهلاء والازواج الحمقاء ورؤساء كل الجمعيات الضعيفة . ولهذا ما انتشر نور التوحيد في أمة قط إلا وتكسرت فيها قيود الاسر ولكن قتل الانسان ما اكفره بنعم مولاه وما أظلمه لنفسه وجنسه .

﴿ الاستبداد والمجد ﴾

من الحكم البالغة للمتأخرين قولهم « الاستبداد أصل لكل فساد» ومبنى ذلك ان البحث المدقق في أحوال البشر وطبائع الاجتماع كشف ان للاستبداد أثراً سيئاً في كل واد .

وقد سبق ان الاستبداد يضغط على العقل فيفسده ويلعب بالدين فيفسده . ويحارب العلم فيفسده . واني الآن أبحث في انه كيف يغالب الاستبداد المجد فيفسده ويقيم مقامة التمجد .

المجد هو احراز المرء مقام حب واحترام في القلوب وهو مطلب طبيعي شريف لكل انسان لايترفع عنه نبي أوزاهد ولا ينحط عنه دني أوخامل . للمجد لذة روحية تقارب لذة العبادة عند المتفانين في الله وتعادل لذة العلم عند الحكماء وتربو على لذة امتلاك الارض مع قمرها عند الامراء وتزيد على لذة مفاجئة الاثراء عند الفقراء ولذا يزاحم المجد في النفوس منزلة الحياة .

ولذا طالما اشكل على الباحثين أي الحرصين أقوى ؟ حرص الحياة أم حرص المجد ؟ والحقيقة التي عول عليها المتأخرون وميزوا بها تخليط ابن خلدون هي ان المجد مفضل على الحياة عند الاحرار . وحب الحياة ممتاز على المجد عند الاسراء . وعلى هذه القاعدة يكون أئمة آل البيت عليهم السلام معذورين في القائهم بأنفسهم في المهالك لأنهم لما كانوا أحراراً ابراراً يميزون طبعاً الموت كراما على حياة ذل ورياء مثل حياة ابن خلدون الذي خطأ أمجاد البشر في إقدامهم على الخطأ ناسيا تقريره ان سباع الطير والوحوش تأبى التناسل في أقفاص الأسر بل وجدت فيها طبيعية اختيار الانتحار تخلصا

من قيود الذل .

المجد لا ينال الا بنوع من البذل في سبيل الجماعة وبتعبير الشرقيين في سبيل الله أو سبيل الدين . وبتعبير الغربيين في سبيل الانسانية أو سبيل الوطنية . والمولى تعالى المستحق التعظيم لذاته ماطالب عبيده بتمجيده الا وقرن الطلب بذكر نعمائه عليهم .

وهذا البذل اما بذل مال للنفع العام ويسمى مجد الكرم وهو أضعف المجد أو بذل العلم النافع المفيد للجمعية ويسمى مجد الفضيلة أو بذل النفس بالتعرض للمشاق والاخطار في سبيل نصرة الحق وحفظ النظام ويسمى مجد النبالة . وهذا أعلى المجد وهو المراد عند الاطلاق . وهو المجد على الذي تتوق اليه النفوس الكبيرة وتحن اليه أعناق النبلاء . وكم له من عشاق لذت لهم في حبه الشهادة وأكثرهم يكون من مواليد بيوت الشرف التالد الذي يتصل أوله بعهد الحرية والعدل أو يكون من نجباء بيوت ما انقطعت فيها سلسلة المجاهدين انقطاعا طويلا ومن أمثلة المجد قولهم خلق الله للمجد رجالا يستعذبون الموت في سبيله .

وهذا (نيرون) سأل «آغريبين» الشاعر وهو تحت النطع من أشقى الناس ؟ فأجابه معرّضا به من اذا ذكر الناس الاستبداد كان مثالا له في الخيال . وكان (ترابان) العادل اذا قلد سيفا لقائد يقول له هذا سيف الامة أرجو ان لا أتعدى القانون فلا يكون له نصيب في عنقي

وخرج قيس من مجلس الوليد مغضبا يقول أتريد ان تكون جباراً والله ان نعال الصعاليك لأطول من سيفك . وقيل لأحد الأباة مافائدة سعيك غير جلب الشقاء على نفسك فقال ماأحلى الشقاء في سبيل تنغيص الظالمين . وقال آخر عليّ ان أفي بوظيفتي وماعلي ضمان القضاء . وقيل لاحد النبلاء لماذا لاتبني لك داراً فقال ماأصنع فيها وأنا المقيم على ظهر الجواد أو في السجن أو في القبر وهذه ذات النطاقين « أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها » وهي امرأة عجوز تودع ابنها الوحيد بقولها ان كنت على الحق فاذهب وقاتل الحجاج حتى تموت.

والحاصل ان المجد هو المجد محبب للنفوس لا تفتأ تسعى وراءه وترقى مراقيه وهو ميسر في عهد العدل لكل انسان على حسب استعداده وهمته وينحصر تحصيله في زمن الاستبداد بمقاومة الظلم على حسب الامكان .

ويقابل المجد من حيث مبناه التمجد وماهو التمجد ؟ وماذا يكون التمجد ؟ التمجد التمجد لفظ هائل المعنى ولهذا أراني أتعثر بالكلام وأتلعثم في الخطاب لاسيما من حيث أخشى مساس احساس بعض المطالعين ان لم يكن من جهة أنفسهم فمن جهة أجدادهم الاولين فاناشدهم الوجدان والحق المهان ان يتجردوا دقيقتين من النفس وهواها . ثم هم مثلي ومثل سائر الجانين على الانسانية لا يعدمون

تأويلا . وانني أعلل النفس بقبولهم تهوين هذا فأنطلق وأقول

التمجد خاص بالادارات المستبدة وهو القربى من المستبد بالفعل كالاعوان والعمال أو بالقوة كالملقبين بنحو دوق وبارون والمخاطبين بنحو رب العزة ورب الصولة أو الموسومين بالنياشين أو المطوقين بالحمائل وبتعريف آخر التمجد هو أن ينال المرء جذوة نار من جهنم كبرياء المستبد ليحرق بها شرف الانسانية.

وبتوصيف أجلى هو أن يتقلد الرجل سيفا من قبل الجبار يبرهن به على انه جلاد في دولة الاستبداد أو يعلق على صدره وساما مشعرا بما وراءه من الوجد ان المستبيح للعدوان او يتحلى بسيور مزركشة تنبئ بأنه صار اقرب الى النساء منه الى الرجال . وبعبارة أوضح وأخصر هو ان يصير الانسان مستبداً صغيراً في كنف المستبد الاعظم.

قلت إن التمجد خاص بالادارات الاستبدادية وذلك لان الحكومة الحرة التي تمثل عواطف الامة تأبى كل الاباء اخلال التساوي بين الافراد الا لموجب حقيقي فلا ترفع قدر أحد منها الا أثناء قيامه في خدمتها أي الخدمة العمومية كما انها لا تميزه بوسام أو تشرفه بلقب الا اعلانا لخدمة مهمة وفقه الله اليها وبمثل هذا يرفع الله الناس بعضهم فوق بعض درجات

وهذا لقب اللوردية مثلا عند الانكليز هو من بقايا عهد

الاستبداد ولكن لاينال عندهم غالباً الامن يخدم أمته خدمة عظيمة ويكون من حيث أخلاقه وثروته أهلا لان يخدمها خدمامهمة غيرها ومع ذلك لااعتبار للورد في نظر الامة الامادامت تقرأ في جبهته سطراً محرراً بقلم الوطنية وبمداد الشهادة ممضى بدمه يقسم فيه بشرفه انه ضمين ناموس الامة أي قانونها الاساسي حفيظ على روحها أي حريتها .

التمجد لايكاد يوجد له أثر في الامم القديمة الا في دعوى الالوهية وما بمعناها من نفع الناس بالانفاس أوفي دعوى الاصلاء نسل الملوك والامراء وانما نشأ التمجد في القرون الوسطى وراج سوقه في القرون الاخيرة الى أن صارت الحرية تغسل ادرانه على حسب قوتها وطاقتها .

المتمجدون يريدون أن يخدعوا العامة ومايخدعون الا أنفسهم بانهم أحرار في شؤونهم لايزاح لهم نقاب ولاتصفع منهم رقاب فيحوجهم هذا المظهر الكاذب لتحمل الاساآت والاهانات التي تقع عليهم من قبل المستبد بل للحرص على كتمها بل على اظهار عكسها بل على مقاومة من يدعي خلافها بل على تغليظ أفكار الناس في حق المستبد وابعادهم من اعتقاد أن من شأنه الظلم .

وهكذا يكون المتمجدون أعداء للعدل أنصاراً للجور وهذا ما يقصده المستبد من ايجاد المتمجدين والاكثار منهم ليتمكن بواسطتهم من ان يغرر الامة على اضرار نفسها تحت اسم منفعتها فيسوقها مثلا

لحرب اقتضاها محض الاستبداد فيوهمها انه يريد نصرة الدين أو يسرف بالملايين من أموال الامة في ملذاته وتأييد استبداده باسم حفظ شرف الامة وأبهة ملكها. أو يستخدم الامة في التنكيل باعداء ظلمه باسم انهم اعداء لها. أو يتصرف في حقوق الملك والامة كما يشاؤه هواه باسم ان ذلك من مقتضي الحكمة والسياسة.

المستبد قد يستمجد بعض افراد من ضعاف القلوب الذين هم كبقر الجنة لا ينطحون ولا يرحمون. يتخذهم كنموذج البائع الغشاش على انه لا ينتخب العمال والاعوان الا من الاراذل والاسافل ولهذا يقال دولة الاستبداد دولة الاوغاد والحكمة في ذلك اظهر من ان تحتاج الى بيان طويل.

المستبد قد يستمجد أيضاً بالمناصب والمراتب بعض العقلاء الامناء اغتراراً منه بأنهم خبثاء ينفعونه بدهائهم ثم لما يخيب نظره فيهم بعد التجربة يبادر التنكيل بهم أو يهجرهم ولهذا لا ينال الحظوة عنده الا الجاهل العاجز أو الخبيث الخائن. وهنا أنبه فكر المطالعين الى ان هذه الفئة أي العقلاء الذين يذوقون عسيلة مجد الحكومة وينشطون لخدمة الامة ونيل مجد النبالة ثم يضرب على يدهم لمجرد انهم امناء هي الفئة التي تتكهرب بعداوة الاستبداد وينادي أفرادها بالاصلاح. وهذا الانقلاب قد أعيا المستبدين أمره لانهم لا يستغنون عن التجربة

ولا يأمنون هذه المغبة. ومن هنا نشأ اعتمادهم في التجربة غالبا على العريقين في خدمة الاستبداد الوارثين من آبائهم وأجدادهم الاخلاق المرضية للمستبدين ومن هنا ابتدأت في الامم نغمة التمجد بالاصالة والانساب

حيث كان للاصالة مشاكلة قوية للمجد والتمجد رأيت ان أتكلم عليها قليلا ثم أعود لبحث المستبد وأعوانه المتمجدين فأقول.

الاصالة صفة لا تنكر مزاياها من حيث الاميال التي يرثها الابناء من الآباء: ومن حيث التربية التي تكون مستحكمة في البيت: ومن حيث انها تكون مقرونة بشيء من الثروة المعينة على مظاهر الرحمة والشهامة: ومن حيث انها مدعاة غالبا للتمثل بالاقران مشوقة للتفوق والتميز: ومن حيث تقويتها العلاقة بالامة والوطن. ومن حيث ان أهلها يكونون منظورين دائما فيتحاشون نوعا المعائب والنقائص.

وبيوت الاصالة تنقسم الى ثلاثة أنواع. بيوت علم وفضيلة. وبيوت مال وكرم. وبيوت ظلم وامارة. وهذا الاخير هو القسم الاكثر عدداً والاهم موقعا وهو مطمح نظر المستبد في الاستعانة وموضع ثقته. فلننظر ماذا هو نصيب هذا القسم من تلك المزايا.

هل يرث الابن من جده المؤسس لمجده أميال في العدالة ولم توجد. أم يتربى على غير الوقار الباطل السائد فيما بين العائلة في بيتهم أم يستخدم الثروة في غير الملاذ البهيمية والابهة الكاسرة لقلوب الفقراء

أم يتمثل بغير اقران السوء المتملقين المنافقين . أم لا يستحقر أمته لجهلها قدره ومقامه أم يرى لجنابه وطنا غير مقاعد التحكم . أم يستحي من الناس ومن هم الناس عنده غير اشباح فيها أرواح .

وهذه حالة الاكثرين من الاصلاء على انه لا نبخس حق من نال منهم حظا من العلم وأوتي الحكمة فان هؤلاء وقليل ما هم ينجبون نجابة عظيمة عجيبة فكانهم يرثون قوة القلب فيستعملونها في الخير لا في الشر ويستفيدون من انفة الكبراء الجسارة على العظماء وهكذا تتحول قوة .

كل المميزات الى فضل فائض وحسب شامخ ومنها الحنين على الوطن وأهله والانين لمصابه والاقدام على العظائم وأمثال هؤلاء النوابغ النجباء اذا كثروا في أمة يوشك ان يترقى منهم آحاد الى درجة الخوارق فيقودوا أممهم الى النجاح والفلاح ولا غرو فان اجتماع نفوذ النسب وقوة الحسب يفعلان ولا عجب فعل المستبد العادل أي عنقاء مغرب .

ثم ان الاصلاء هم جرثومة البلاء في كل قبيلة ومن كل قبيل لان بني آدم داموا اخوانا متساوين الى أن ميزت الصدفة بعض افرادهم بكثرة النسل فنشأت منها القوات العصبية . ونشأ من تنازعها تميز أفراد على افراد وحفظ هذه الميزة أوجد الاصلاء فالاصلاء في عشيرة أو أمة اذا كانوا متقاربي القوات استبدوا على باقي الناس وأسسوا حكومة أشراف ومتى وجد بيت من الاصلاء يتميز كثيرا على باقي البيوت يستبد وحده

ويؤسس الحكومة الفردية المقيدة اذا كان لباقي البيوت بقية بأس أو المطلقة اذا لم يبق أمامه ما يتقيه .

بناء عليه اذا لم يوجد في أمة اصلاء بالكلية أو وجد ولكن كان لسواد الناس صوت غالب اقامت تلك الامة فعلا أو حكما لنفسها حكومة انتخابية لا وراثة فيها ابتداء ولكن لا يتوالى بضع متولين الا ويصير انسالهم اصلاء يتناظرون كل فريق منهم يسعى لاجتذاب طرف من الامة استعداداً للمغالبة واعادة التاريخ الاول .

ومن أكبر مضار الاصلاء أنهم ينهمكون أثناء المغالبة على اظهار الابهة والعظمة يسترهبون أعين الناس ويسحرون عقولهم ويتكبرون بها عليهم . ثم اذا غلب غالبهم واستبد بالامر لا يتركها الباقون لألفتهم لذتها ومضاهاة للمستبد . والمستبد نفسه لا يحملهم على تركها بل يدر عليهم المال ويعينهم عليها ويعطيهم الالقاب والرتب وشيئا من النفوذ والتسلط على الناس ليتلهوا بذلك عن مقاومة استبداده ولاجل ان يألفوها مديداً فتفسد أخلاقهم فينفر منهم الناس ولا يبقى لهم ملجأ غير بابه فيصيرون أعوانا له بعد أن كانوا اضداداً .

ويستعمل المستبد أيضاً مع الاصلاء سياسة الشد والارخاء والالتفات والاغضاء كي لا يبطروا وسياسة القاء الفساد فيما بينهم كي لا يتفقوا عليه وتارة ينتقم من بعضهم باسم العدالة ارضاء للناس واخرى

يستغني عن بعضهم بافرادمن اداني الرعية كسراً لشوكتهم . والحاصل ان المستبد يذلل الاصلاء بالترف حتى يجعلهم يترامون بين رجليه ثم يتخذهم لجاما لتذليل الرعية . ويستعمل عين هذه السياسة مع العمال ورؤساء الاديان . وبهذه السياسة أونحوها يخلو الحولهذا المستبد يعصف وينسف الرعية كريش يقلبه الصرصر والسموم على أديم من الجمر ولله الامر . نعم لله جل شأنه الامر حيث قال « واذا اردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول » .

المستبد في لحظة جلوسه على عرشه ووضع تاجه الموروث على رأسه يرى نفسه كان انساناً فصار إلهاً . ثم يرجع النظر فيرى نفسه في نفس الامر أعجز من كل عاجز وانه مانال مانال الا بواسطة من حوله من الاعوان فيرفع نظره اليهم فيسمع لسان حالهم يقول له ما الارث . وما العرش . وما التاج . وما الصولجان الا أوهام في أوهام . مامكنك في هذا المقام وسلطك على رقاب الانام الا سحرنا وخيانتنا لديننا ووجداننا ووطننا واخواننا فانظر كيف تعيش معنا .

ثم يلتفت الى جماهير الرعية المتفرجين فيراهم مسحورين مبهوتين كأنهم أموات من حين . ولكن يتجلى في فكره ان بينهم بعض أفراد عقلاء أمجاد يخاطبونه بالعيون بأن لنا معاشر الأمة شؤنا وكلناك في قضائها على مانريد ونبغي لا على ماتريد فتبغي .

وعندئذ يرجع المستبد الى نفسه قائلا الأعوان الأعوان أسلمهم القيام واردهم بجيش من الاوغاد أحارب بهم هؤلاء الامجاد وبغير هذا الحزم لا يدوم لي استبداد ولا استعباد.

الحكومة المستبدة تكون طبعاً مستبدة في كل فروعها من المستبد الاعظم الى الشرطي الى الفرّاش الى كناس الشوارع ولا يكون كل صنف الا من أسفل أهل طبقته اخلاقا لان الاسافل لا يهمهم جلب محبة الناس انما غاية مسعاهم اكتساب ثقة المستبد فيهم بأنهم على شاكلته وانصار لدولته وشرهون لأكل السقطات من ذبيحة الأمة. وبهذا يأمنهم ويأمنونه فيشاركهم ويشاركونه. وهذه الفئة المستبدة يكثر عددها ويقل حسب شدة الاستبداد وخفته. فكلما كان المستبد حريصاً على العسف احتاج الى زيادة جيش المتمجدين العاملين له والمحافظين عليه. واحتاج الى الدقة في اتخاذهم من اسفل السافلين الذين لا أثر عندهم لدين أو وجدان واحتاج لحفظ النسبة بينهم في المراتب بالطريقة المعكوسة وهي ان يكون أسفلهم طباعا أعلاهم وظيفة وقربا.

ان العقل والتاريخ والعيان كل يشهد بان الوزير الاعظم المستبد هو اللئيم الاعظم في الامة ثم من دونه من الوزراء يكونون دونه لؤما وهكذا تكون مراتب لؤمهم حسب مراتبهم في التشريفات. وربما يغتر المطالع كما اغتر بعض المؤرخين البسطاء بأن كثيراً من وزراء

المستبدين كانوا يتأوهون من المستبد ويتشكون من أعماله ويجهرون بملامه ويظهرون لو أنه ساعدهم الامكان لعملوا وفعلوا وافتدوا الامة بأموالهم بل وحياتهم فكيف والحالة هذه يكون هؤلاء أكثر الامة لؤما بل كيف ذلك ومنهم الذين خاطروا بأنفسهم والذين أقدموا على مقاومة الاستبداد فنالوا المراد أو بعضه أو هلكوا دونه.

فجواب ذلك ان المستبد حريص على ظلم الناس وهو محتاج لعصابة تعينه. فهل يجوّز العقل انه ينتخب لعصابته من يشك فيه أنه لا يوافقه على مراده. كلا. هل ينتخب وزيراً له من السوقة لم تسبق له تجربة ولا معرفة ما انطوى عليه. كلا. هل يمكن أن يكون الوزير متخلقاً بالخير حقيقة وبالشر ظاهراً فيخدع المستبد بأعماله وهو هو الذي أعزه بكلمة ويعزله بكلمة. كلا. المستبد وهو من لا يجهل ان الناس أعداؤه لظلمه فهل يأمن على بابه من لا يثق به انه أظلم منه وأبعد منه عن اعدائه. كلا.

ثم كيف يكون الوزير أمينا من صولة المستبد اذا لم يكن بينهما وفاق واتفاق على خيرة الشيطان حال كون الوزير محسوداً بالطبع يتوقع له المزاحمون كل شر ويبغضه الناس ولو تبعا لظالمهم وهو هدف في كل ساعة للشكايات الممحقة والوشايات المحرقة. أم كيف يكون عند الوزير شيء من التقوى أو الحياء أو العدل أو الوجدان أو الحكمة أو الرحمة ويقبل أن يكون جلاداً للمستبد.

أم كيف يكون عند الوزير نزعة من الشفقة والرأفة على الامة وهو العالم بانها تبغضه وتمقته وتتوقع له كل سوء مالم يتفق معها على المستبد وما هو بفاعل ذلك ابداً الا اذا يئس من اقباله عنده . وان فعل فلا يقصد نفع الامه انما يريد تهديد المستبد أو فتح باب لمستبد جديد عساه يستوزره فيوازره على وزره .

والنتيجة ان وزير المستبد هو وزير المستبد لا وزير الأمة كما في الحكومات الدستورية . ومثله المشير هو مشير للمستبد مغير على الأمة لا غيوراً عليها . خصوصا وهو الذي يعلم من نفسه أن المستبد قلده السيف وهو لم يدفع عنه صائلا ولا فتح له فتحاً مبينا وانما عاهده على استعمال هذا السيف في رقاب اعداء استبداده وماهم الا الأمة المسكينة .

بناء عليه لا يغتر أحد من العقلاء بما يتشدق به الوزراء والقوّاد من الانكار على الاستبداد والتفلسف بالاصلاح وان تلهفوا وان تأففوا ولا ينخدع النبهاء لهم وان ناحوا وان بكوا . ولا يثقون بهم وبوجدانهم مهما صلوا وسبحوا . لان ذلك كله ينافي سيرهم وسيرتهم ولا ضامن على انهم أصبحوا يخالفون ماشبوا وشابوا عليه هم أقرب ان لا يقصدوا بتلك المظاهر غير تهديد المستبد واستدرار دماء الرعية أي أموالها نعم كيف يجوز تصديق الوزير والعامل الكبير انه يريد القاء سيفه للأمة لتكسره . وهو قد ألف عمراً طويلا لذة البذخ وعزة الجبروت .

وهو من تلك الامة التي قتل الاستبداد فيها كل الاميال الشريفة العالية حتى صار الفلاح التعيس يؤخذ للجندية وهو يبكي فلا يكاد يلبس كم ثوبها الا ويتمرد على أمه وأبيه ويتمرد على أهل قريته وذويه ويكظ أسنانه عطشا للدماء لا يميز بين أخ أو عدو.

ولنذكر بعض الدلائل القطعية الدامغة التي تثبت ان كل رجال عهد الاستبداد لا خلاق لهم ولا حمية ولا يرجى منهم خير مطلقاً. وان كل ما يتظاهرون به أحيانا من التذمر والتألم يقصدون به تغرير وخداع الأمة المسكينة ويطمعهم في انخداعها لهم علمهم بان الاستبداد القائم في الحقيقة بهم والذي سيدوم أيضاً بهمتهم قد أعمى ابصار الامة وبصائرها وخدّر أعصابها فهي لا ترى الا هو ولا محيطا ولا تشعر الا بألم عام فتئن من البلاء ولا تدري من أين جاءها. فتواسيها فئة باسم الدين يقولون لها هذا قضاء جاء من السماء فلا مرد له بغير الصبر والرضاء ويغررها آخرون وهم أولئك الاعاظم المتوجعون بأنهم أطباء المرض ويهتمون بازالته ومتحمسون لانقاذ الأمة من تلك الملمة. وهم وايم الحق كذابون مخادعون لا يريدون الا التضليل دائما وتهديد المستبد احيانا.

فمن تلك الدلائل انهم لا يستصنعون الا الاسافل الاراذل ولا يميلون لغير المتملقين المنافقين كما هو شأن صاحبهم المستبد الاكبر. ومنها انه قد يوجد منهم من لا يتنزل لقليل الرشوة ولكن لا يوجد فيهم

من يأبى كثيرها . ومنها ان ليس فيهم غير المستبيح مشاركة المستبد في امتصاص دم الأمة ذلك بأخذهم العطايا الكبيرة والرواتب الباهظة التي تعادل بضع أضعاف ما تسمح به الادارة العادلة لامثالهم . ومنها انهم لا يصرفون شيئاً ولو سراً من هذه الاموال الطائلة في سبيل مقاومة الاستبداد الذي يزعمون انهم أعداؤه . ومنها ان أحدهم قد يكون مسرفا مبذراً فلا تكفيه الرواتب المعتدلة التي يمكن ان ينالها في ظل شجرة العدالة ومنها انه قد يكون شحيحا مقتراً في نفقاته بحيث يخل في شرف مقامه فلا يصرف نصف أو ربع راتبه مع انه يقبضه زائداً على أجر مثله بحجة حفظ شرف المقام العائد لشرف الامة وبهذا الشح يكون خائنا ومهينا .

هذا ولا ينكر التاريخ ان الزمان أوجد نادراً بعض وزراء ندموا على ما فرطوا فتابوا وأنابوا ورجعوا لصف الأمة واستعدوا للكفارة المسيحية أو الشهادة الاسلامية . كما ويوجد في كل زمان بعض شواذ من الوزراء والقواد عريقين في الشهامة فيظهر فيهم سر الوراثة ولو بعد الاربعين وربما السبعين ظهوراً بيناً تتلألأ في محياه ثريا الاخلاص

والنتيجة ان المستبد فرد عاجز لا قوة فيه ولا حول له الا بالمتمجدين والامة المأسورة ليس لها من يحك جلدها غير ظفرها ولا يقودها الا العقلاء بالتنوير والاهداء حتى اذا اكفهرت سماء عقول بنيها قيض الله لها منها

قادة ابراراً يشترون لها السعادة بشقائهم والحياة بموتهم حيث جعل الله في ذلك لذتهم ولمثله خلقهم : كما خلق آخرين فساقا فجارا مهالكهم الشهوات والمثالب فسبحان الذي يختار من يشاء لما يشاء وهو الخلاق العظيم

(الاستبداد والمال)

لو كان الاستبداد رجلا وأراد ان يحتسب وينتسب لقال « انا الشر وأبي الظلم وأمي الاساءة وأخي الغدر وأختي المسكنة وعمي الضر وخالي الذل وابني الفقر وبنتي البطالة ووطني الخراب وعشيرتي الجهالة » .

ويصح في وصف المال ان يقال . القوة مال والعقل مال والعلم مال والدين مال والثبات مال والجاه مال والجمال مال والترتيب مال والاقتصاد مال . والحاصل كل ما ينتفع بثمرته الانسان هو مال وكل هذه الاسباب وثمراتها معرضة لافساد الاستبداد ومجلبة فيه للوبال .

ان النظام الطبيعي في كل الحيوانات حتى في السمك والهوام الا العنكبوت بعد اخصابه أن النوع الواحد منها لا يأكل بعضه بعضاً والانسان يأكل الانسان . ومن غريزتها ان تلتمس الرزق من الله أي من مورده الطبيعي والانسان حريص على التماسه من أخيه .

عاش الانسان دهراً طويلا يأكل لحم الانسان فعلا الى أن تمكن حكماء الصين والهند من ابطال أكل اللحم كليا والى ان جاءت الشرائع

الدينية الاولى في الجهات السائرة ابتداء بتخصيص مايؤكل من الانسان بالقربان الذي يذبح للمعبود ثم ابقت القربان وجعلت الذبيحة طعمة للنيران حتى تدرج الانسان الى نسيان لذة لحم اخوانه . وقد استبدل الله عز شأنه على يد ابراهيم عليه الصلاة والسلام قربان البشر بالحيوان واتبعه موسى وباقي الانبياء عليهم السلام وبه جاء الاسلام . أما عيسى عليه السلام فانه استعاض قربان الحيوان بالخبز ولكن بقي ذلك مقصوراً على الكنائس ولم يعم .

وهكذا بطل أكل الانسان لحم الانسان الا عند بعض قبائل الزنوج فانه موجود حتى الآن . على ان الاستبداد المشئوم أحياسنة أكل البشر بشكل أدهى وأمر . وذلك أنه جعل الاقوام طعمة للظالمين فكان الاولون يذبحون ويأكلون من يأسرون من أعدائهم فقط والمستبدون يأسرون جماعتهم ويذبحونهم فصداً بمبضع الظلم ويمتصون دماء حياتهم بغصب أموالهم ويقصرون أعمارهم باستخدامهم سخرة في أعمالهم أو بغصب ثمرات أتعابهم . وهكذا لا فرق بين الأولين والآخرين في نهب الاعمار وازهاق الارواح الا في الشكل .

ان بحث الاستبداد والمال بحث قوي العلاقة بالظلم القائم في فطرة الانسان ولهذا رأيت ان لا بأس في الاستطراد لمقدمات تتعلق نتائجها بالاستبداد الاجتماعي المحمي بقلاع الاستبداد السياسي . فمن ذلك

ان البشر المقدر مجموعهم بألف وخمسمائة مليون نصفهم كل على النصف الآخر ويشكل أكثرية هذا النصف. نساء المدن ومن النساء: النساء هن النوع الذي عرف مقامه في الطبيعة بأنه هو الحافظ لبقاء الجنس وانه يكفي للالف منه ملقح واحد وان باقي الذكور يساقون للمخاطر والمشاق أو يستحقون مايستحقه ذكر النحل وبهذا النظر اقتسمن النساء مع الذكور أعمال الحياة قسمة ضيزى وتحكمن بسن قانون عام به جعلن نصيبهن هين الاشغال بدعوى الضعف وجعلن نوعهن مطلوبا عزيزا بأيهام العفة. وجعلن الشجاعة والكرم سيئتين فيهن محمدتين في الرجال وجعلن نوعهن يهين ولا يهان ويظلم أو يظلم فيعان. وعلى هذا القانون يربون البنات والبنين ولهذا سماهم بعض الاخلاقيين بالنصف المضر. وقال ان الضرر يترقى مع الحضارة والمدنية على نسبة الترقي المضاعف. فالبدوية تسلب الرجل نصف ثمرة أعماله والحضرية تسلب اثنين من ثلاث. والمدنية تسلب خمسة من ستة: وهكذا تترقى بنت العواصم.

ثم ان رجال البشر تقاسموا مشاق الحياة قسمة ظالمة أيضاً فان رجال السياسة والاديان ومن يلتحق بهم وعددهم لا يتجاوز الواحد في المائة يتمتعون بنصف مايتجمد من دم البشر أو زيادة ينفقونه في الرفه والاسراف مثال ذلك انهم يزينون الشوارع بملايين من المصابيح

لمرورهم فيها احياناولا يفكرون في ملايين من الفقراء يعيشون في بيوتهم في ظلام.

ثم أهل الصنائع النفيسة والكمالية والتجار الشرهون والمحتكرون وأمثال هذه الطبقة ويقدّرون كذلك بواحد في المائة يعيش أحدهم بمثل ما يعيش به العشرات أو المئات أو الألوف من الصناع والزراع. وهذه القسمة المتفاوتة بين آدم وحواء الى هذه النسبة المتباعدة هي قسمة جاء بها الاستبداد السياسي.

نعم لا يقتضي أن يتساوى العالم الذي صرف زهوة حياته في تحصيل العلم النافع أو الصنعة المفيدة بذاك الجاهل النائم في ظل الحائط ولا المجتهد المخاطر بالكسول الخامل ولكن العدالة تقتضي غير ذلك التفاوت بل تقتضي الانسانية أن يأخذ الراقي بيد السافل فيقربه من منزلته ويقاربه في معيشته.

بسط المولى جعلت حكمته سلطان الانسان على الاكوان فطغى وبغي ونسى ربه وعبد المال والجمال وجعلهما منيته ومبتناه كانه خلق خادما لبطنه وعضوه فقط لا شأن له غير الغذاء والتحاك. وبالنظر الى ان المال هو الوسيلة الموصلة للجمال كاد ينحصر أكبرهم للانسان في جمع المال ولهذا يكني عنه بمعبود الامم وبسر الوجود وروى كريسو المؤرخ الروسي ان كاترينا شكت كسل رعيتها فأرشدت الى حمل

النساء على الخلاعة فتفعلت وأحدثت كسوة المراقص فهب الشبان للعمل وكسب المال لصرفه على ربات الجمال وفي ظرف خمس سنين تضاعف دخل خزينتها فاتسع لها مجال الاسراف . وهكذا المستبدون لا تهمهم الاخلاق انما يهمهم المال .

المال عند الاقتصاديين ما ينتفع به الانسان وعند الحقوقيين ما يجرى فيه المنع والبذل وعند السياسيين ما تستعاض به القوة وعند الاخلاقيين ما تحفظ به الحياة الشريفة . المال يستمد من الفيض الذى أودعه الله تعالى في الطبيعة ونواميسها . ولا يملك أي لا يتخصص بانسان الا بعمل فيه أو في مقابله .

التموّل أي ادخار المال طبيعة في بعض أنواع قليلة من الحيوانات الدنيئة الضعيفة كالنمل والنحل ولا أثر لطبيعة التمول في الحيوانات المرتقية غير الانسان فانه تطبع عليه . الانسان تطبع على التمول لدواعى الحاجة المحققة أو الموهومة ولا تحقق للحاجة الا عند سكان الاراضي الضيقة الثمرات على أهلها أو الاراضي المعرضة للقحط في بعض السنين . ويلتحق بالحاجة المحققة حاجة العاجزين قسما عن التمول في البلاد المبتلاة بجور الطبيعة أو جور الاستبداد . وربما يلتحق بها أيضاً الصرف على المضطرين وعلى المصارف العمومية في البلاد التي ينقصها الانتظام العام .

والمراد بالانتظام العام معيشة الاشتراك العمومي التي جاء بها الاسلام ولكن لم تدم أكثر من قرنين كان فيهما المسلمون لا يجدون من يدفعون لهم الصدقات والكفارات . وذلك ان الاسلامية كما أسست حكومة ديمقراطية وقد سبق ايضاحها أسست أيضاً أصول هذه المعيشة التي يتمنى ما هو من نوعها أغلب العالم المتمدن الافرنجي مع أنه تسعى وراءها منهم جمعيات منتظمة مكونة من ملايين كثيرة ومع ان لها نوع من الاصل في الانجيل وهو تخصيص عشر الاموال للمساكين.

وهذه الجميعات تطلب التساوي أو التقارب في الحقوق والحالة المعاشية بين البشر وتسعى ضد الاستبداد المالي ذلك التساوي والتقارب المقرر ان في الاسلامية ديناً بوسيلة أنواع الزكاة وتقسيمها على أنواع المصارف العامة وأنواع المحتاجين ولا يخفى على المدقق ان جزاً من أربعين من رؤس الاموال يلحق فقراء الامة باغنيائها ويمنع تراكم الثروات المفرطة المولدة للاستبداد المضرة بأخلاق الافراد . وكذلك تركت الاسلامية معظم الاراضي الزراعية ملكاً لعامة الامة يستنبتها ويتمتع بخيراتها العاملون فيها فقط وليس عليهم غير العشر أو الخراج الذي لا يجوز أن يتجاوز الخمس لبيت المال.

ثم ان التمول لأجل الحاجات السالفة الذكر وبقدرها فقط محمود

بثلاثة شروط والا كان حرص التمول من أقبح الخصال. الشرط الأول ان يكون احراز المال بوجه مشروع حلال أي باحرازه من بذل الطبيعة أو بالمعارضة أو في مقابل عمل أو في مقابل ضمان.

والشرط الثاني أن لا يكون في التمول تضييق على حاجيات الغير كاحتكار الضروريات أو مزاحمة الصناع والعمال الضعفاء أو التغلب على المباحات مثل امتلاك الاراضي التي جعلها خالقها ممرحا لكافة مخلوقاته وهي أمهم ترضعهم لبن جهازاتها وتغذيهم بثمراتها وتأويهم في حضن أجزائها فجاء المستبدون الظالمون الاولون ووضعوا أصولا لحمايتها من أبنائها وحاولوا بينهما فهذه ايرلانده مثلا قد حماها ألف مستبد مالي من الانكليز ليتمتعوا بثلثي أو ثلاثة أرباع ثمرات أتعاب عشرة ملايين من البشر الذين خلقوا من تربة ايرلانده. وهذه مصر وغيرها تقرب من ذلك حالا وستفوقها مآلا. وكم من البشر في أوربا المتمدنة وخصوصاً في لندره لا يجد أحدهم أرضا ينام عليها متمددا بل ينامون في الطبقة السفلى حيث لا ينام البقر وهم قاعدون صفوفا يعتمدون بصدورهم على حبال من مسد منصوبة أفقية فيتلوون عليها عنة ويسرة.

وحكومة الصين المختلة النظام في نظر المتمدنين لا تجيز قوانينها ان يمتلك الشخص الواحد أكثر من مقدار معين من الارض لا يتجاوز العشرين كيلو مترا مربعا أي أقل من خمسة افدنة مصرية

وروسيا المستبدة القاسية في عرف أكثر الاروبيين وضعت أخيراً لولاياتها البولونية والغربية قانونا أشبه بقانون الصين وزادت عليه انها منعت سماع دعوى دين غير مسجل على فلاح ولا تأذن لفلاح أن يستدين أكثر من نحو خمسمائة فرنك وحكومات الشرق اذا لم تستدرك الامر فتضع قانونا من قبيل قانون روسيا تصبح الاراضي الزراعية بعد خمسين عاما أوقرن على الاكثر كايرلانده الانكليزية المسكينة التي وجدت في مدى ثلاثة قرون شخصا واحدا حاول أن يرحمها فلم يفلح وأعني به غلادستون. على أن الشرق ربما لا يجد في ثلاثين قرنا من يلتمس الرحمة له.

والشرط الثالث لجواز التمول. هو أن لا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير لان افراط الثروة مهلكة للأخلاق الحميدة في الانسان فانه ليطغى ان رآه استغنى والشرائع السماوية كلها وكذلك الحكمة السياسة والاخلاقية والعمرانية حرّ من الربا بقصد حفظ التساوي والتقارب بين الناس في القوة المالية لان الربا هو كسب بدون مقابل مادي ففيه معنى الغصب وبدون عمل ففيه الالفة على البطالة المفسدة للأخلاق وبدون تعرض لخسائر طبيعية كالتجارة والزراعة والاملاك ومن المشاهد الذي لا خلاف فيه ان ليس من كسب لاعار فيه أربح من الربا مهما كان معتدلا وان بالرباتربو الثروات فيختل التساوي بين الناس.

وقد نظر الماليون والاقتصاديون في أمر الربا فقالوا إن المعتدل منه نافع بل لا بد منه. أولا لاجل قيام المعاملات الكبيرة. وثانيا لاجل أن النقود الموجودة لا تفي للتداول فكيف اذا أمسك المكتنزون قسما منها أيضاً. وثالثا لاجل أن كثيرين من المتمولين لا يعرفون طرائق الاسترباح أو لا يقدرون عليها كما أن كثيراً من العارفين بها لا يجدون رؤس أموال ولا شركاء عنان. فهذا النظر صحيح من وجه انماء ثروات الأفراد والأمم أما السياسيون والاخلاقيون فينظرون الى أن ضرر ذلك في جمهور الامم أكبر من نفعها لان هذه الثروات الافرادية تمكن الاستبداد الداخلي فتجعل الناس صنفين عبيداً وأسياداً وتقوي الاستبداد الخارجي فتسهل التعدي على حرية واستقلال الأمم الضعيفة مالا وعدة وهذه مقاصد فاسدة في نظر الحكمة والعدالة ولذلك حرمت الديانات الربا تحريما مغلظا.

حرص التمول وهو الطمع القبيح يخف كثيراً عند أهالي الحكومات العادلة المنتظمة ما لم يكن فساد الاخلاق متغلباً على الاهالي كأكثر الامم المتمدنة في عهدنا لان فساد الاخلاق يزيد في الميل الى التمول في نسبة الحاجة الاسرافية. ولكن تحصيل الثروة في عهد الحكومة العادلة عسر جداً وقد لا يتأتى الا من طريق المراباة مع الأمم المنحطة أو التجارة الكبيرة التي فيها نوع احتكار أو

الاستعمار في البلاد البعيدة مع المخاطرات.

وهذا الحرص القبيح يشتد كثيراً في رؤس الناس في عهد الحكومات المستبدة حيث يسهل فيها تحصيل الثروة بالسرقة من بيت المال وبالتعدي على الحقوق العامة وبغصب مافي أيدي الضعفاء ونحو ذلك من الوسائل المقدورة لكل انسان ترك الدين والوجدان والحياة جانباً وانحط في اخلاقه الى ملائمة المستبد الاعظم أو أحد أعوانه وعماله ويكفيه أن يتصل بباب أحدهم ويتقرب من اعتابه ويظهر له أنه في الاخلاق من أمثاله وعلى شاكلته. ويبرهن له ذلك بأشياء من التملق وشهادة الزور وخدمة الشهوات والتجسس والدلالة على السلب ونحو ذلك. ثم بعد أن يتمكن ويطلع على بعض الخفايا والاسرار التي يخاف المستبد من ظهورها خوفا حقيقياً أو وهمياً يكسب هذا المنتسب رسوخ القدم بل يصير هو بالغيره وهكذا يحصل على الثروة الطائلة اذا ساعدته الظروف على الثبات طويلا. وهذا أعظم أبواب الثروة في الشرق والغرب ويليه الاتجار بالدين ويليه الرباثم الملاهي.

وقد ذكر المدققون ان ثروة بعض الافراد في الحكومات العادلة أضر كثيراً منها في الحكومات المستبدة لان الاغنياء في الاول يصرفون قوتهم المالية في افساد اخلاق الناس واخلال المساواة وايجاد الاستبداد أما الاغنياء في الحكومات المستبدة

فيصرفون ثروتهم فى الابهة والتعاظم ارهابا للناس وتعويضا للسفالة الحقيقية بالتعالى الباطل ويصرفون الاموال فى الفسق والفجور .

بناء عليه ثروة هؤلاء يتعجلها الزوال حيث يغصبها الاقوى منهم من الاضعف . وتزول أيضا والحمدلله قبل أن يتعلم أصحابها أو ورثتهم كيف تحفظ الثروات وكيف تنمو وكيف يستعبدون بها الناس استعبادا أصوليا مستحكما كما هو الحال فى أوروبا المتمدنة المهددة بشروط الفوضويين بسبب اليأس من مقاومة الاستبداد المالى فيها .

ولنرجع الى بحث طبيعة الاستبداد فى مطلق المال فنقول . إن الاستبداد يجعل المال فى أيدي الناس عرضة لسلب المستبد وأعوانه وعماله غصبا أو بحجة باطلة وعرضة أيضا لسلب المعتدين من اللصوص والمحتالين الراتعين فى ظل أمان الاستبداد . وحيث المال لا يحصل الا بالمشقة فلا تختار النفوس الاقدام على المتاعب مع عدم الأمن على الانتفاع بالثمرة

حفظ المال فى عهد الادارة المستبدة أصعب من كسبه لان ظهور أثره على صاحبه مجلبة لأنواع البلاء عليه . ولذلك يضطر الناس زمن الاستبداد لاخفاء نعمة الله والتظاهر بالفقر والفاقة . ولهذا يقال فى مثال هؤلاء ان حفظ درهم من الذهب يحتاج الى قنطار من العقل ويقال العاقل من يخفي ذهبه وذهابه ومذهبه ويقال أسعد الناس الصعلوك الذي لا يعرف الحكام ولا يعرفونه .

ومن طبائع الاستبداد ان الاغنياء أعداؤه فكراً واوتاده عملا فهم ربائط المستبد يذلهم فيئنون ويستدرهم فيحنون ولهذا يرسخ الذل في الأمم التي يكثر أغنياؤها أما الفقراء فيخافهم المستبد خوف النعجة من الذئاب ويتحبب اليهم ببعض الاعمال التي ظاهرها الرأفة يقصد بذلك ان يغصب أيضاً قلوبهم التي لا يملكون . غيرها والفقراء كذلك يخافونه خوف دناءة ونذالة خوف البغاث من العقاب فهم لا يجسرون على الافتكار فضلا عن الانكار كأنهم يتوهمون ان داخل رؤسهم جواسيس عليهم . وقد يبلغ فساد الاخلاق في الفقراء ان يسرهم فعلا رضاء المستبد عنهم بأيّ وجه كان رضاؤه .

قيل في مدح المال ان أكبر ما يحل المشكلات الزمان والمال . وقالوا لا يصان الشرف الا بالدم ولا يتأتى العز الا بالمال . وورد في الاثر . ان اليد العليا خير من اليد السفلى وان الغنى الشاكر أفضل من الفقير الصابر . ولم يكن قديما أهمية للثروة العمومية أما الآن وقد صارت المحاربات محض مغالبات علم ومال فاصبح للثروة العمومية أهمية عظمى لأجل حفظ الاستقلال على ان الأمم المأسورة لا نصيب لها من الثروة العمومية فأصبحت منزلتها في المجتمع الانساني كالأنعام تتناقلها الايدي .

هذا وللمال الكثير آفات على الحياة الشريفة ترتعد منها فرائض أهل الفضيلة والكمال الذين يفضلون الكفاف من الرزق مع حفظ

الحرية والشرف على امتلاك دواعي الترف والسرف. وينظرون الى المال الزائد على الحاجة انه بلاء في بلاء في بلاء أي انه بلاء من حيث التعب في تحصيله وبلاء من حيث القلق على حفظه وبلاء من حيث ربطه صاحبه على وتد الاستبداد وأما المكتفي فيعيش مطمئناً مستريحاً أميناً بعض الا من على دينه وشرفه وأخلاقه.

قرر الاخلاقيون ان الانسان لا يكون انسانا مالم تكن له صنعة مفيدة تكفي معاشه باقتصاد لا تنقصه فتذله ولا تزيد عليه فتطغيه. وهذا معنى الحديث (فاز المخفون) وحديث (اسألوا الله الكفاف من الرزق) ويقال الغني غني القلب. والغني من قلت حاجته. والغني من استغنى عن الناس. قال بعض الحكماء كل انسان فقير بالطبع ينقصه مثل ما يملك فمن يملك عشرة يرى نفسه محتاجا لعشرة أخرى ومن يملك الفا يرى نفسه محتاجاً لألف. وهذا معنى الحديث (لو كان لابن آدم. وادمن ذهب «وفي رواية من غنم» لتمنى أن يكون له وادآخر).

ولا يقصد الاخلاقيون من التزهيد في المال التثبيط عن كسبه. انما يقصدون ان لا يتجاوز كسبه الطرائق الطبيعية الشريفة. أما المستبدون فلا يهمهم الا أن تستغنى الرعية بأيّ وسيلة كانت والغربيون منهم يعينون الامة على الكسب والشرقيون لا يفتكرون في ذلك وهذه من جملة الفروق بين الاستبدادين الغربي والشرقي التي منها أن

الاستبداد الغربي يكون أحكم وأرسخ وأشد ولكن مع اللين . والشرقي يكون مقلقلا سريع الزوال ولكنه مزعجا . ومنها أن الغربي اذا زال تبدل بحكومة عادلة تقيم ما ساعدت الظروف أن تقيم . أما الشرقي فيزول ويخلفه استبداد شر منه لان من دأب الشرقيين أن لا يفتكروا في مستقبل قريب كان أكبر همهم منصرف الى ما بعد الموت فقط .

وخلاصة القول ان الاستبداد داء أشد وطأة من الوباء . أكثر هولا من الحريق . أعظم تخريبا من السيل . أذل للنفوس من السؤال . داء اذا نزل بقوم سمعت أرواحهم هاتف السماء ينادي القضاء القضاء والارض تناجي ربها بكشف البلاء كيف لا تقشعر الجلود من الاستبداد وعهده عهد أشقى الناس فيه العقلاء والاغنياء وأسعدهم بمحياه الجهلاء والفقراء بل أسعدهم أولئك الذين يتعجلهم الموت فيحسدهم الأحياء

﴿ الاستبداد والاخلاق ﴾

الاستبداد يتصرف في أكثر الاميال الطبيعية والاخلاق الحسنة فيضعفها أو يفسدها أو يمحوها فيجعل الانسان يكفر بنعم مولاه لانه لم يملكها حق الملك ليحمده عليها حق الحمد ويجعله حاقدا على قومه لانهم عون الاستبداد عليه . وفاقد احب وطنه لانه غير آمن على الاستقرار ويود لو انتقل منه . وضعيف الحب لعائلته لانه ليس مطمئنا على دوام علاقته معها . ومختل الثقة في صداقة أحبابه لانه يعلم منهم أنهم مثله لا يملكون

التكافؤ وقد يضطرون لاضرار صديقهم بل وقتله وهم باكون . أسير الاستبداد لا يملك شيئاً ليحرص على حفظه لانه لا يملك مالا غير معرض للسلب ولا شرفا غير معرض للاهانة . ولا يملك الجاهل منه آمالا مستقبلة ليتبعها ويشقى كما يشقى العاقل فى سبيلها .

وهذه الحال تجعل الاسير لا يذوق في الكون لذة نعيم غير الملذات البهيمية . بناء عليه يكون شديد الحرص على حياته الحيوانية وان كانت تعيسة . وكيف لا يحرص عليها وهو لا يعرف غيرها أين هو من الحياة الادبية أين هو من الحياة الاجتماعية . أما الاحرار فتكون منزلة حياتهم الحيوانية عندهم بعد مراتب عديدة ولا يعرف ذلك الا من كان منهم أو كشف الله عن بصيرته ومثال ذلك الشيوخ فانهم عند ما تمسي حياتهم كلها أسقاما وآلاما ويقربون من أبواب القبور يحرصون على حياتهم أكثر من الشباب في مقتبل العمر في مقتبل الملاذ في مقتبل الآمال .

الاستبداد يسلب الراحة الفكرية فيضنى الاجسام فوق ضناها بالشقاء فتمرض العقول ويختل الشعور على درجات متفاوتة في الناس . والعوام الذين هم قليلو المادة في الاصل قد يصل مرضهم العقلى الى درجة قريبة من عدم التمييز بين الخير والشر في كل ما ليس من ضروريات حياتهم الحيوانية ويصل تسفل ادراكهم الى أن مجرد آثار الابهة والعظمة التي يرونها على المستبد وأعوانه تبهر أبصارهم . ومجرد سماع الفاظ التفخيم

في وصفه وحكايات قوته وصولته يزيغ أفكارهم فيرون ويفكرون أن الدواء في الداء. فينصاعون بين يدي الاستبداد انصياع الغنم بين أيدي الذئاب حيث هي تجري على قدميها جاهدة. الى مقر حتفها.

ولهذا كان الاستبداد يستولي على تلك العقول الضعيفة للعامة فضلا عن الاجسام فيفسدها كما يريد ويتغلب على تلك الاذهان الضئيلة فيشوش فيها الحقائق بل البديهيات كما يهوى فيكون مثلهم في انقيادهم الاعمى للاستبداد ومقاومتهم للرشد والارشاد مثل تلك الهوام التي تترامى على النار وكم هي تغالب من يريد حجزها عن الهلاك. ولا غرابة في تأثير ضعف الاجسام في إضعاف العقول فان في المرضى وخفة عقولهم وذوي العاهات ونقص ادراكهم شاهدا بيننا كما يظهر الحال أيضاً بأقل تدقيق نظر في فرق الصحة وغزارة الدم وقوة الاجسام وجمال الهيئات بين جموع الاحرار وجموع الاسراء.

ربما يستريب اطالع اللبيب الذي لم يتعب فكره في درس طبيعة الاستبداد من أن الاستبداد المشؤم كيف يقوي على قلب الحقائق. فأقول نعم الاستبداد يقلب الحقائق في الاذهان. حتى انه قد مكن بعض القياصرة والملوك الاولين من التلاعب بالاديان تأييداً لاستبدادهم. وقد وضع الناس الحكومات لاجل خدمتهم والاستبداد قلب الموضوع فجعل الرعية خادمة للرعاة كانها خلقت لاجلهم فقبلوا وقنعوا.

كما أن الاستبداد استخدم قوتهم المجتمعة وهي هي قوة الحكومة على مصالحهم لا لمصالحهم فارتضوا ورضخوا وقد قبل الناس من الاستبداد ما ساقهم اليه من اعتقاد ان طالب الحق فاجر وتارك حقه مطيع والمشتكى المتظلم مفسد والنبيه المدقق ملحد والخامل المسكين هو الصالح الامين . وقد اتبع الناس الاستبداد في تسميته النصح فضولا والغيرة عداوة والشهامة عتوا والحمية جنونا والانسانية حماقة والرحمة مرضا . كما جاروه على اعتبار ان النفاق سياسة والتحيل كياسة والدناءة لطف والنذالة دماثة .

ولا غرابة في تحكم الاستبداد على الحقائق في أفكار البسطاء انما الغريب اغفاله كثيراً من العقلاء ومنهم جمهور المؤرخين الذين يسمون الفاتحين الغالبين بالرجال العظام وينظرون اليهم نظر الاجلال والاحترام لمجرد انهم كانوا أكثروا في قتل الانسان وأسرفوا في تخريب العمران ومن هذا القبيل في الغرابة اعلاء المؤرخين قدر من جاروا المستبدين وحازوا القبول والوجاهة عند الظالمين . وكذلك افتخار الاخلاف باسلافهم المرحومين الذين كانوا من هؤلاء الاعوان والمقربين .

وقد يدخل على الناس ان للاستبداد حسنات مفقودة في الادارة الحرة ويسلمون له بها فيقولون الاستبداد يلين الطباع ويلطفها والحق ان ذلك يحصل فيه عن فقد الشهامة لا عن فقد الشراسة ويقولون الاستبداد يعلم الطاعة والانقياد والحق ان هذا فيه عن خوف وجبانة لا عن ارادة

واختيار . أو يقولون هو يربى النفوس على احترام الكبير وتوقيره والحق انه مع الكراهة والبغض لاعن ميل وحب . ويقولون الاستبداد يقلل الفسق والفجور والحق فيه انه عن فقر وعجز لاعن عفة أودين . ويقولون هو يقلل الجرائم والحق انه يخفيها فيقل تعديدها لاعددها .

تفعل العدالة في أخلاق البشر ما تفعله العناية في انماء الشجر فالاقوام كالآجام ان تركت مهملة تزاحمت أشجارها وسقم أكثرها وتغلب قويها على ضعيفها فأهلكه وهذا مثل القبائل المتوحشة وان صادفت بستانيا يهمه بقاؤها وزهوها فدبرها حسبما تطلبه طباعها قويت وأينعت وحسنت ثمارها وهذا مثل الحكومة العادلة واذا بليت بحطاب لايعنيه الاعاجل الاكتساب أفسدها وخربها وهذا مثل الحكومة المستبدة . ومتى كان البستاني أو الحطاب غريبا لم يخلق من تراب تلك الديار وليس له فيها فخار ولا يلحقه منها عار . انما همه الحصول على الفائدة العاجلة ولو باقتلاع الاصول فهناك الطامة وهناك البوار فبناء على هذا المثال يكون مقام الاستبداد بازاء الاخلاق مقام ذلك الحطاب الذي لا يرجى منه غير الافساد .

لاتكون الاخلاق أخلاقا مالم تكن مطردة على قانون وهذا مايسمى عند الناس بالناموس . ومن أين لاسير الاستبداد أن يكون

صاحب ناموس وهو كالحيوان المملوك العنان يقاد حيث يراد ويعيش كالريش يهب حيث يهب الريح لا نظام ولا ارادة . وماهي الارادة هي أم ناموس الأخلاق . هي ماقيل فيها تعظيما لشأنها . لو جازت عبادة غير الله لاختار العقلاء عبادة الارادة . هي تلك الصفة التي تفضل الحيوان على النبات في تعريفه بأنه متحرك بالارادة فأسير الاستبداد الفاقد الارادة هو مسلوب حق الحيوانية فضلا عن الانسانية لأنه يعمل بأمر غيره لا بارادته . ولهذا قال الفقهاء لانية للرقيق في كثير من أحواله انما هو تابع لنية مولاه .

أسير الاستبداد لا نظام في حياته قد يصبح غنيا فيضحى شجاعاً كريما ويمسي فقيراً فيبيت جبانا خسيساً وهكذا كل شؤنه تشبه الفوضى لا ترتيب فيها فهو يتبعها بلا وجهة . فالاسير لا يبغي على الأسير فيزجر أولا يزجر ويبغي عليه فينصر أولا ينصر ويجوع يوما فيضوي ويخصب يوما . فيتخم يريد أشياء فيمنع ويأبى شيئاً فيرغم . ومن كانت هذه حاله كيف يكون له خلاق وان وجد ابتداء فكيف لا يفسد .

أقل مايؤثر الاستبداد في أخلاق الناس انه يرغم الأخيار منهم على الفة الرياء والنفاق ولبئس السيئتان ويعين الاشرار على اجراء غي نفوسهم آمنين حتى من الانتقاد والفضيحة لان أكثر أعمالهم تبقى مستورة يلقى عليها الاستبداد رداء خوف الناس من تبعة الشهادة

وعقبى ذكر الفاجر بما فيه.

أقوى ضابط للاخلاق النهي عن المنكر بالنصيحة والتوبيخ وهو في عهد الاستبداد غير مقدور عليه لغير ذوى المنعة مع الغيرة وقليل ماهم وقليلا مايفعلون وقليلا مايفيدنهيهم لأنه لايمكنهم توجيهه لغير المستضعفين الذين لايملكون ضراً ولا نفعاً بل ولا يملكون من أنفسهم شيئاً وينحصر موضوع نهيهم وانتقادهم في الرذائل النفسية الشخصية فقط مما لايخفى على أحد أما المتصدرون في عهد الاستبداد للوعظ والارشاد فيكونون مطلقا ولا أقول غالبا من المتملقين المرائين وما أبعد هؤلاء عن التأثير لأن النصح الذى لا اخلاص فيه هو بذر ميت. أما النهي عن المنكرات في الادارة الحرة فيمكن كل غيور أن يقوم به بأمان واخلاص ويوجهه الى الضعفاء والاقوياء سواء ويفوق سهام قوارصه على ذوي الشوكة والزعماء ويخوض في مواضيع تخفيف الظلم وتسديد النظام وهذا هو النصح الذي يعدي ويجدي.

ولما كان ضبط أخلاق الطبقات العليا من الناس من أهم الامور أطلقت الأمم الحرة حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات مستثنية القذف فقط. ورأت أن تحمل مضرة الفوضي في ذلك خير من التحديد لأنه لاضامن للحكام ان يجعلوا الشعرة من التقييد سلسلة من حديد يخنقون بها عدوتهم الطبيعية أي الحرية. وقد حمى القرآن قاعدة

الاطلاق بوضعه قاعدة « ولا يضار كاتب ولا شهيد ».

وهذه الأمم الموفقة خصصت منها جماعات باسم مجالس نواب وظيفتها السيطرة والاحتساب على الادارة العمومية السياسية. وذلك منطبق تماما على ما أمر به القرآن الكريم في آية « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » وفي كمالة هذه الآية وهي « وأولئك هم المفلحون » من التبجيل مايحمل نفوس الأبرار على تحمل مضض القيام بهذه الوظيفة الشريفة في ذاتها الممقوتة طبعاً عند المستبد وأعوانه.

***

الخصال تنقسم أولا الى حسنة طبيعية كالصدق والامانة والهمة والمدافعة والرحمة وقبيحة طبيعية كالرياء والاعتداء والجبانة والقسوة وهذا القسم تضافرت عليه كل الطبائع والشرائع. وثانيا الى خصال كمالية جاءت بها الشرائع الالهامية كتحسين الايثار والعفو وتقبيح الزنا والطمع وهذا القسم ربما يوجد فيه مالا تدرك كل العقول حكمته أو حكمة تعميمه انما يمتثله المنتسب للدين احتراما أو خوفا. والقسم الثالث الخصال الاعتيادية وهي مايكتسبه الانسان بالوراثة أو بالتربية أو بالالفة فيستحسن أو يستقبح على حسب أمياله.

ثم إن التدقيق يفيد أن الاقسام الثلاثة تشتبك وتشترك ويؤثر

بعضها في بعض ويكون مجموعها تحت تأثير الالفة بحيث كل خصلة منها ترسخ أو تتزلزل حسبما يصادفها من استمرار الالفة أو انقطاعها فالقاتل مثلا لا يستنكر صنيعته في المرة الثانية كما استقبحها من نفسه في الأولى وهكذا يخف الجرم في وهمه حتى يصل الى درجة التلذذ بالقتل كأنه حق طبيعي له كما هي حالة الجبارين وغالب السياسيين فانهم يستبيحون اهراق الدماء لغاياتهم السياسية . ولهذا يصح وصف هذا الصنف بالجلادين ولا فرق في القتل بالسيف أو القلم بقطع الأوداج أو بايراث الشقاء .

وكذلك يكون أسير الاستبداد لاسيما اذا كان عريقا فيه فانه يرث شر الخصال ويتربى على أشرها ويصحبه الشر مدى العمر فمن أين تأتيه الخصال الحسان الا تكفيه مفسدة لكل الخصال الحسنة الطبيعية والشرعية والاعتيادية الفته الرياء اضطرارا حتى يصير ملكة فيه فيفقد الثقة من نفسه فلا يقدر أن يحكم عليها بخلق مستقر فيه فلا يمكنه مثلا أن يجزم بامانته أو يضمن ثباته فيعيش سيئ الظن في حق ذاته متردداً في أعماله لو امانفسه على اهماله شؤنه شاعرا بنقصه لكن لا يشعر من أين أتاه فيتهم الخالق والخالق جل شأنه لم ينقصه شيئاً . ويتهم تارة دينه وتارة تربيته وتارة زمانه وتارة قومه . والحقيقة بعيدة عن كل ذلك وما الحقيقة غير انه خلق حرا فأسر .

أجمع الاخلاقيوق على أن المتلبس بشائبة من القبائح الخلقية الاصلية لا يمكنه أن يقطع بسلامة غيره منها — وهذا معنى (اذا ساءت فعال المرء ساءت ظنونه) فالمرائي مثلا ليس من شأنه أن يظن البراءة في غيره من شائبة الرياء كليا. الا اذا بعد تشابه النشأة بينهما بعداً كبيرا. كأن يكون بينهما مغايرة في الجنس والدين أو تفاوت مهم في المنزلة كصعلوك وأمير كبير. ومثال ذلك الفلاح وأمثاله في الشرق يأمن الافرنكي في معاملته ويثق بوزنه وحسابه ولا يأمن ويثق بابن جلدته وكذلك الافرنجي اذا عهد من نفسه الخيانة قد يأمن الشرقي ولا يأمن مطلقاً ابن جنسه وهذا الحكم صادق على عكس القضية أيضاً أى أن الأمين يظن الناس أمناء خصوصاً أشباهه في النشأة وهذا معنى (الكريم يخدع) وكم يذهل الامين في نفسه عن اتباع حكمة الحزم في اساءة الظن في مواقعه اللازمة.

اذا علمنا أن من طبيعة الاستبداد ألفة الناس بعد الاخلاق الرديئة وان منها ما يضعف الثقة بالنفس ولذلك يقل فيهم أهل العمل وأهل العزائم كما ويفقدهم ثقتهم بعضهم ببعض فيعلم من ذلك أن الاسراء محرومون طبعاً من ثمرة الاشتراك في أعمال الحياة يعيشون مساكين بائسين متواكلين متخاذلين متقاعسين متفاشلين والعاقل الحكيم لا يلومهم بل يشفق عليهم ويلتمس لهم مخرجا ويتبع أثر أحكم الحكماء القائل (رب

ارحم قومي فانهم لا يعلمون) اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون .

وهنا أستوقف المطامع وأستلفته الى التأمل في ماهي ثمرة الاشتراك التي يحرمها الاسراء فأذكره بأن الاشتراك هو أعظم سر الكائنات به قيام كل شيء ماعدا الله وحده به قيام الاجرام السماوية به قيام المواليد به قيام حياة العالم العضوي . به قيام الأجناس والأنواع . به قيام الامم والقبائل . به قيام العائلات وأعضاء الأجسام . نعم فيه سر الحياة . فيه سر تضاعف القوة بنسبة ناموس التربيع . فيه سر تجديد الاستمرار على الاعمال التي لا تفنى بها أعمار الافراد . نعم الاشتراك هو السر كل السر في نجاح الامم المتمدنة . به أكملوا ناموس حياتهم . به ضبطوا نظام حكوماتهم به قاموا بعظائم الامور . به نالوا كلما يغبطهم عليه غيرهم

ورب قائل يقول ان سر الاشتراك ليس بالأمر الخفي وقد طالما كتب فيه الكتاب حتى ملته الاسماع ولم يندفع للقيام به في الشرق غير اليابانيين والبوير فما السبب . فأجيبه بأن الكتاب كتبوا وأكثروا وأحسنوا فيما فصلوا وصوروا ولكن قاتل الله الاستبداد وشؤمه جعلهم يحصرون أقوالهم في الدعوة الى الاشتراك وما بمعناه من التعاون والاتحاد والتحابب والاتفاق ومنعهم من التعرض لذكر الاسباب كلياً . أو اضطرهم الى الاقتصار على بيان الاسباب الاخيرة فقط فمن قائل مثلا الشرق مريض وسببه الجهل ومن قائل الجهل بلاء

وسببه قلة المدارس . ومن قائل قلة المدارس عار وسببه عدم التعاون على انشائها من قبل الافراد أومن قبل ذوي الشأن .

وهذا أعمق مايخطه قلم الكاتب الشرقي كأنه وصل الى السبب المانع الطبيعي أوالاختياري . والحقيقة ان هناك سلسلة أسباب أخرى تنتهي عند التحول الى القيام بوظيفة الارشاد للزوم التخلص من الاستبداد . والسبيل الى تكاثر الطلاب .

وقائل آخر يقول الشرق مريض وسببه فقد التمسك بالدين ثم يقف . مع انه لو تتبع الأسباب لبلغ الى الحكم بأن التهاون في الدين ناشيء من الاستبداد . وان العافية المفقودة هي الحرة السياسية فيرشد اخوانه الى طلبها ومهرها كثرة الطلاب .

قد اتفق الحكماء الذين أكرمهم الله تعالى بوظيفة الأخذ بيد الأمم في بحثهم عن المهلكات والمنجيات على أن فساد الأخلاق يخرج الأمم عن أن تكون قابلة للخطاب وان معاناة اصلاح الاخلاق من أصعب الأمور وأحوجها الى الحكمة البالغة والعزم القومي وذكروا أن فساد الاخلاق يفشو من المستبد وأعوانه من الوزراء الى الفراشين ومن القواد الى الأنفار . ومن هؤلاء يدخل افساد الاخلاق بالعدوى الى كل البيوت . لا سيما بيوت الطبقات العليا التي تتمثل بها السفلى . وهكذا يتعمم الفساد وتمسي الأمة يبكيها

المحب ويشمت بها العدو . وتبيت وداؤها عياء لا يرجي له شفاء .

وقد سلك الانبياء عليهم السلام في انقاذ الأمم من شقائها مسلك الابتداء أولا بفك العقول من تعظيم غير الله والاذعان لسواه . وذلك بتقوية حسن الايمان المفطور عليه وجدان كل انسان . ثم جهدوا في تنوير العقول بمبادئ الحكمة وتعريف الانسان كيف يملك ارادته أي حريته في أفكاره : واختياره في أعماله وبذلك هدموا حصون الاستبداد وسدوا منبع الفساد . ثم بعد اطلاق زمام العقول صاروا ينظرون الى الانسان بأنه مكلف بقانون الانسانية ومطالب بحسن الأخلاق فيعلمونه ذلك بأساليب التعليم المقنع وبث التربية التهذيبية .

والحكماء السياسيون الأقدمون اتبعوا الأنبياء عليهم السلام في سلوك هذه الطريق وهذا الترتيب . أي بالابتداء من نقطة دينية توصلا لتحرير الضمائر ثم باتباع طريق التربية والتهذيب بدون فتور ولا انقطاع .

أما المتأخرون الغربيون فمنهم فئة سلكوا طريقة الخروج بأممهم من حظيرة الدين وآدابه النفيسة الى فضاء الاطلاق وتربية الطبيعة زاعمين ان الفطرة في الانسان كافية لضبط النظام . وقد غرهم بهذه الطريق زهوة مدخلها واعتقادهم ان الدين والاستبداد كلمتان بمعنى واحد .

وقد ساعدهم على سلوك هذا المسلك أنهم وجدوا أممهم قدفشا فيها نور العلم ذلك العلم الذي كان منحصراً في خدمة الدين عند المصريين والاشوريين ومحتكراً في أبناء الأشراف عند الغرناطيين والرومان ومخصصا في أعداد من الشبان المنتخبين عند الهنديين واليونان حتى جاء العرب بعد الاسلام وأطلقوا حرية العلم وأباحوا تناوله لكل متعلم فانتقل الي أوروبا حراً . فتنورت به عقول الأمم على درجات وفي نسبتها ترقت تلك الامم في النعيم وانتشرت وتخالطت وصار المتأخر منها يغبط المتقدم ويتنغص من حالته ويتطلب اللحاق ويبحث عن وسائله . فنشأ من ذلك حركة معرفة الخير والغيرة على نواله حركة معرفة الشر والانفة من الصبر عليه حركة تستدعي السير الى الأمام رغم كل معارض . فاغتنم زعماء الحرية قوة هذه الحركة وأضافوا اليها قوات أدبية شتى كاستبدال ثقالة وقار الدين بزهوة عروس الحرية حتى انهم لم يبالوا بتمثيل الحرية بحسناء خليعة تختلب النفوس وكاستبدال رابطة الاشتراك في الطاعة للمستبدين برابطة الاشتراك بحب الوطن . وهكذا جعلوا قوة حركة الافكار تياراً سلطوه على رؤس الرؤس من أهل السياسة والدين . على أن هؤلاء الزعماء أخذوا من مهجورات دينهم قاعدة (الغاية تبرر الواسطة) وقاعدة (تثقيل الذمة مبيح) ودفعوا الناس بهما الى ارتكاب

الجرائم الفظيعة التى لا يستبيحها الحكيم الشرقى لما بين أبناء الغرب وأبناء الشرق من التباين في الغرائز والأخلاق.

نعم الغربي مادى الحياة قوى النفس شديد المعاملة حريص على الاستئثار حريص على الانتقام كأنه لم يبق عنده شئ من المبادئ العالية والعواطف الشريفة التى نقلتها له مسيحية الشرق فالجرماني مثلا جاف الطبع يرى أن العضو الضعيف الحياة من البشر يستحق الموت. ويرى كل الفضيلة في القوة وكل القوة في المال فهو يحب العلم ولكن لاجل المال ويحب المجد ولكن لاجل المال. واللاتينى منه مطبوع على العجب والطيش. يرى العقل في الاطلاق والحياة في خلع الحياء والشرف في الزينة واللباس. والعز في التغلب على الناس أما أهل الشرق فهم أدبيون ويغلب عليهم ضعف القلب وسلطان الحب والاصغاء للوجدان والرحمة ولو في غير موقعها. واللطف ولو مع الخصم والفتوة والقناعة والتهاون في المستقبل. ولهذا ليس من شأن الشرقي ان يجوز ما يستبيحه الغربي وان جوّزه لا يحسن استثماره ولا يقوي على حفظه فالشرقي مثلا يهتم في شأن ظالمه المستبد فاذا زال لا يفكر فيمن يخلفه.

والحاصل أن الحكماء المتأخرين الغربيين ساعدتهم ظروف الزمان والمكان لاختصار الطريق فسلكوه واستباحوا ما استباحوا حتى انهم

استباحوا فى التمهيد بتشجيع المستبدين على تشديد وطأة الظلم والاعتساف بقصد تعميم الحقد عليهم وبمثل هذه التدابير القاسية نالوا المراد أو بعضه من تحرير الافكار وتهذيب الأخلاق وجعل الانسان انساناً.

وقد سبق هؤلاء المتأخرين فئة اتبعت أثر النبيين ولم تحفل بطول الطريق وتعبه فنجحت ورسخت وأعنى بتلك الفئة أولئك الحكماء الذين لم يأتوا بدين جديد ولا تمسكوا بمعاداة كل دين كمؤسسي جمهورية الفرنسيس بل رتقوا فتوق الدهر في دينهم بما نقحوا وهذبوا وسهلوا وقربوا حتى جددوه وجعلوه صالحا لتجديد خليق أخلاقهم.

وما أحوج الشرقيين أجمعين من بوذيين ومسلمين ومسيحيين واسرائيليين وغيرهم الى حكماء لا يبالون بغوغاء العلماء الغفل الاغبياء والرؤساء القساة الجهلاء يجددون النظر في الدين فيعيدون النواقص المعطلة ويهذبونه من الزوائد الباطلة مما يطرأ عادة على كل دين يتقادم عهده فيحتاج الى مجددين يرجعون به الى أصله المبين البرىء من حيث تمليك الارادة والسعادة في الحياة من كل مايشين. المخفف شقاء الاستبداد والاستعباد المبصر بطرائق التعليم والتعلم الصحيحين المهيء قيام التربية الحسنة واستقرار الأخلاق المنتظمة مما به يصير

الانسان انسانا وبه لا بالكفر يعيش الناس اخوانا .

والشرقيون ماداموا على حاضر حالهم بعيدين عن الجد والعزم مرتاحين للهو والهزل تسكيناً لآلام اساوة النفس واخلاداً الى الخمول والتسفل طلبا لراحة الفكر المضغوط عليه من كل جانب يتألمون من تذكيرهم بالحقائق ومطالبتهم بالوظائف ينتظرون زوال العناد بالتوا كل أو التمني والدعاء أو يتربصون صدفة مثل التي نالتها بعض الأمم فليتوقعوا اذاً ان يفقدوا الدين كليا فيصبحوا وما الصبح عليهم ببعيد دهريين لا يدرون أي الحياتين أشقى أو فلينتظروا ماحاق بالاشوريين والفينيقيين وغيرهم من الأمم المنقرضة والله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

﴿الاستبداد والتربية﴾

خلق الله في الانسان استعداداً للصلاح واستعداداً للفساد فابواه يصلحانه وأبواه يفسدانه أي ان التربية تربو باستعداده جسما ونفسا وعقلا ان خيراً فخير وان شراً فشر . وقد سبق ان الاستبداد المشؤم يؤثر على الأجسام فيورثها الأسقام ويسطو على النفوس فيفسد الأخلاق ويضغط على العقول فيمنع نماءها بالعلم . بناء عليه تكون التربية والاستبداد عاملين متعاكسين في النتائج فكل ماتبنيه التربية مع ضعفها يهدمه الاستبداد بقوته .

استعداد الانسان لاحدّ لغايته فقد يبلغ في الكمال الى ما فوق مرتبة الملائكة لانه هو المخلوق الذي حمل الامانة وقد أبتها كافة العوالم ويصح ان تكون هذه الامانة هي تخير تربية النفس على الخير أو الشر وقد يتلبس بالرذائل حتى يكون أحط من الشياطين بل أحط من المستبدين لان الشياطين لا ينازعون الله في عظمته والمستبدون ينازعونه فيها ولكن لحاجة في النفس والمتناهون في الرذالة قد يقبحون عبثا لالغرض حتى قد يتعمدون الاساءة لانفسهم .

الانسان في نشأته كالغصن الرطب فهو مستقيم لدن بطبعه ولكنها أهواء التربية تميل به الى يمين الخير أو شمال الشر فاذا شب يبس وبقي على أمياله مادام حيا بل تبقى روحه الى أبد الآبدين في جحيم الندم على التفريط أو نعيم السرور بايفاء حق وظيفة الحياة وما أشبه الانسان بعد الموت بالفرح الفخور اذا نام ولذت له الأحلام وبالمجرم الجاني اذا نام فغشيته قوارص الوجدان بهواجس كلها ملام وايلام .

التربية ملكة تحصل بالتعليم والتمرين والقدوة والاقتباس فأهم أصولها وجود المربين وأهم فروعها وجود الدين . وهذه الملكة بعد حصولها ان كانت شرا تضافرت مع النفس والشيطان الخناس فرسخت وان كانت خيراً تبقى مقلقلة كالسفينة

في بحر الأهواء لا يرسوبها الافرعها الدينى أو الوازع السياسي مع المثابرة على العمل بمقتضاها . والاستبداد ريح صرصر فيه أعصار يجعل الانسان كل ساعة في شأن . وهو مفسد للدين في أهم قسمية أي الأخلاق . وأما العبادات منه فلا يمسها لانها تلائمه في الأكثر . ولهذا تبقى الأديان في الأمم المأسورة عبارة عن عبادات مجردة صارت عادات فلا تفيد فى تطهير النفوس شيئا فلا تنهي عن فحشاء ولا منكر وذلك لفقد الاخلاص فيها تبعاً لفقدها في النفوس التي ألفت أن تتلجأ وتتلوى بين يدي سطوة الاستبداد في زوايا الكذب والرياء والخداع والنفاق ولهذا لا يستغرب في الاسير الأليف تلك الحال أن يستعملها أيضاً مع ربه ومع أبيه وأمه ومع قومه وجنسه حتى ومع نفسه .

التربية تربية الجسم وحده الى سنتين وهى وظيفة الأم وحدها ثم تضاف اليها تربية النفس الى السابعة وهي وظيفة الأبوين والعائلة معاً . ثم تضاف اليها تربية العقل الى البلوغ وهي وظيفة المعلمين والمدارس . ثم تأتي تربية القدوة بالأقربين والخلطاء الى الزواج وهي وظيفة الصدفة ثم تأتي تربية المقارنة وهى وظيفة الزوجين الى الموت أو الفراق .

ولابد أن تصحب التربية من بعد البلوغ تربية الظروف

المحيطة وتربية الهيئة الاجتماعية وتربية القانون أو السير السياسي وتربية الانسان نفسه.

* * *

الحكومات المنتظمة هي تتولى ملاحظة تربية الأمة من حين تكون في ظهور الآباء وذلك بان تسن قوانين النكاح ثم تعتني بوجود القابلات والملقحين والاطباء ثم تفتح بيوت الايتام اللقطاء ثم المكاتب والمدارس للتعليم من الابتدائي الجبرى الى أعلى المراتب ثم تسهل الاجتماعات وتمهد المراسح وتحمي المنتديات وتجمع المكتبات والآثار وتقيم النصب المذكرات وتضع القوانين المحافظة على الآداب والحقوق وتسهر على حفظ العادات القومية وانماء الاحساسات الملية وتقوى الآمال وتيسر الأعمال وتؤمن العاجزين عن الكسب من الموت جوعا الى أن تقوم باحتفالات جنائزذوى الفضل على الأمة وهكذا الأمة تحرص على أن يعيش ابنها راضياً بنصيبه من حياته لا يفتكر قط كيف تكون بعده حالة صبية ضعاف يتركهم وراءه بل يموت مطمئنا راضياً مرضياً آخر دعائه فلتحى الامة فلتحى الامة.

أما المعيشة البشرية في الادارات المستبدة فهي غنية عن التربية لانها محض نماء يشبه نماء الاشجار الطبيعية في الغابات والأحراش

يسطو عليها الحرق والغرق وتحطمها العواصف والأيدي القواصف ويتصرف في فسائلها وفروعها الفأس الأعمى فتعيش ماشاءت رحمة الحطابين ان تعيش والخيار للصدفة تعوج أو تستقيم تثمر أو تعقم .

يعيش الانسان في ظل العدالة والحرية نشيطا على العمل بياض نهاره وعلى الفكر سواد ليله ان طعم تلذذ وان تلهي تروح وتريض لانه هكذا رأى أبويه وأقرباءه وهكذا يرى قومه الذين يعيش بينهم يراهم رجالا ونساء أغنياء وفقراء ملوكا وصعاليك كلهم دائبين على الأعمال يفتخر منهم كاسب الدينار بكده وجده على مالك المليار ارثا عن أبيه وجده . نعم يعيش العامل الناعم البال يسره النجاح ولا تقبضه الخيبة انما ينتقل من عمل الى غيره ومن فكر الى آخر . فيكون سعيداً بآماله ان لم يسارعه السعد في أعماله وكيفما كان يبلغ العذر عند نفسه وذويه بمجرد ايفائه وظيفة الحياة أي العمل . ويكون فرحا فخوراً نجح أو لم ينجح لانه بريء من عار العجز والبطالة .

أما أسير الاستبداد فيعيش خاملا خامداً ضائع القصد حائراً لايدري كيف يميت ساعاته وأوقاته ويدرج أيامه وأعوامه كانه حريص على بلوغ أجله ليستتر تحت التراب . ويخطيء من يظن أن أكثر الأسراء لا سيما منهم الفقراء لا يشعرون بآلام الأسر مستدلا بأنهم لو كانوا يشعرون لبادروا الى ازالته والحقيقة في ذلك

أنهم يشعرون بأكثر الآلام ولكنهم لا يدركون ما هو سببها فيرى أحدهم نفسه منقبضا عن العمل لأنه غير أمين على اختصاصه بالثمرة وربما ظن السلب حقا طبيعيا للاقوياء فيتمنى أن لو كان منهم . ثم يعمل تارة ولكن بدون نشاط ولا اتقان فيفشل ضرورة ولا يدري أيضا ما السبب فيغضب على ما يسميه سعداً أو حظا أو طالعا أو قدراً .

الأسير المعذب المنتسب الى دين يسلي نفسه بالسعادة الأخروية فيعدها بجنان ذات افنان ونعيم مقيم أعده له الرحمن . ويبعد عن فكره أن الدنيا عنوان الآخرة وأنه ربما كان خاسر الصفقتين . ولبسطاء الاسلام مسليات أظنها خاصة بهم يعطفون مصائبهم عليها وهي نحو قولهم . الدنيا سجن المؤمن . المؤمن مصاب اذا أحب الله عبداً ابتلاه . هذا شأن آخر الزمان حسب المرء لقيمات يقمن صلبه . ويتناسون حديث (ان الله يكره العبد البطال) والحديث المفيد معنى (اذا قامت الساعة وفي يد أحدكم غرسة فليغرسها) ويتغافلون عن النص القاطع المؤجل قيام الساعة الى ما بعد استكمال الارض زخرفها وزينتها . وأين ذلك بعد .

وكل هذه المسليات المثبطات تهون عند ذلك السم القاتل الذي يحول الاذهان عن التماس معرفة سبب الشقاء فيرفع المسؤلية عن

المستبدين ويلقيها على عاتق القضاء والقدر بل على عاتق الاسراء المساكين أنفسهم . وأعني بهذا السم سوء فهم العوام وبله الخواص لما ورد في التوراة من نحو (يد الله على قلب الملك) ولما ورد في الانجيل من نحو (اخضعوا للسلطان ولا سلطة الا من الله) و (الحاكم لا يتقلد السيف جزافا انه مقام للانتقام من أهل الشر) ولما ورد في الرسائل من نحو (فلتضع كل نسمة للسلطة المقامة من الله) وقد صاغ وعاظ المسلمين ومحدثوهم من ذلك قولهم «السلطان ظل الله في الارض» و «الظالم سيف الله ينتقم به ثم ينتقم منه» و «الملوك ملهمون» هذا وكل ما ورد في هذا المعنى ان صح فهو مقيد بالعدالة أو محتمل للتأويل بما يعقل وبما ينطبق على حكم الآية الكريمة التي فيها فصل الخطاب وهي (ألا لعنة الله على الظالمين) وآية (ولا عدوان الا على الظالمين) .

التربية علم وعمل . وليس من شأن الامم المملوكة شؤونها أن يوجد فيها من يعلم التربية ولا من يعلمها حتى لا يرى الباحث عندهم علما في التربية مدفونا في الكتب فضلا عن الاذهان . أما العمل فلا يتصور بلا سبق عزم وهو بلا سبق يقين وهو بلا سبق علم . وعندي أن هذا التسلسل هو المراد في حديث (انما الاعمال بالنيات) ثم ما أبعد الناس المغصوبة ارادتهم المغلولة أيديهم عن

توجيه الفكر الى مقصد مفيد أو توجيه الجسم الى عمل نافع .

نعم ما أبعد هؤلاء عن التربيـة وهي قصر النظر على المحاسن والعبر وقصر السمع على الفوائد والحكم وتعويد اللسان على قول الخير وتعويد اليد على الاتقان وتكبير النفس على السفاسف وتكبير الوجـدان عن نصرة الباطل ورعاية الترتيب في الشؤن ورعاية الاقتصاد في الوقت والمال . والاندفاع بالكليـة لحفظ الشرف لحفظ الحقـوق ولحماية الدين لحماية الناموس ولحب الوطن لحب العائلة ولاعانة العلم لاعانة الضـعيف ولاحتقار الظالمين لاحتقار الحياة . الى غير ذلك مما ينبت في رياض التربيتين العائلية والقومية .

الاستبداد يضطر الناس الى اباحة الكذب والتحيل والخداع والنفاق والتذلل ومراغمة الحس واماتة النفس الى آخره . وينتج من ذلك انه يربي الناس على هذه الخصال بناء عليه يرى الآباء أن تعبهم في تربية الابناء التربية الاولى لابد أن يذهب يوما عبثا تحت أرجل تربية الاستبداد كما ذهبت قبلها تربية آبائهم لهم سدي ثم ان عبيد السلطة التي لاحدود لها هم غير مالكين أنفسهم ولا هم آمنون على أنهم يربون أولادهم لهم بل هم يربون انعاما للمستبدين وأعوانا لهم عليهم . وفي الحقيقـة أن الاولاد في عهـد الاستبداد سلاسل من حديد يرتبط بها الآباء على أوتاد الظلم والهوان والخوف

والتضييق . فالتوالد من حيث هو زمن الاستبداد حمق والاعتناء بالتربية حمق مضاعف . وقد قال شاعر شاعر

ان دام هذا ولم تحدث له غير لم يبك ميت ولم يفرح بمولود

وغالب الاسراء لا يدفعهم للتوالد قصد الاخصاب انما يدفعهم اليه الجهل المظلم وأنهم محرومون من كل الملذات الحقيقية التي يحرمها أيضا الاغنياء الجهلاء عامة كلذة العلم وتعليمه ولذة المجد والحماية ولذة الاثراء والبذل ولذة احراز مقام في القلوب ولذة نفوذ الرأي الصائب الى غير هذه الملذات الروحية . وأما ملذاتهم فهي مقصورة على جعل بطونهم مقابر للحيوانات ان تيسرت والا فمزابل للنباتات ومنحصرة في استفراغهم الشهوة كأن أجسامهم خلقت دملا على أديم الارض وظيفتها توليد الصديد ودفعه . وهذا الشره البهيمي الناشئ عن فقد الملذات العالية المذكورة هو مايعمي الاسراء ويرميهم بالزواج والتوالد مع أن العرض كسائر الحقوق غير مصون زمن الاستبداد بل هو معرض لهتك الفساق من المستبدين والاشرار من أعوانهم خصوصا في الحواضر الصغيرة والقري المستضعف أهلها . ولهذا الضعف في لصقة الاولاد بازواج أمهاتهم تأثير مهم في اضعاف الغيرة على تحمل مشاق التربية تلك الغيرة التي لاجلها شرع الله النكاح وحرم السفاح .

للسعة والفقر أيضا دخل كبير في تسهيل التربية وأين الاسراء من السعة كما أن لانتظام المعيشة ولو مع الفقر علاقة قوية في التربية ومعيشة الأسراء أغنياء كانوا أو معدمين كلها خلل في خلل وضيق في ضيق . فما أبعد الاسراء اذن عن التربية . ثم ليت شعري لماذا يحمل الاباء الاسراء مشاق التربية وهم ان نوروا أولادهم جنوا عليهم بتقوية احساسهم فيزيدونهم شقاء ويزودونهم بلاء ولهذا لا غرو ان يختار الأسراء الذين فيهم بقية من الادراك ترك أولادهم هملا تجرفهم البلاهة الى حيث تشاء.

واذا افتكرنا كيف ينشأ الأسير في البيت الفقير وكيف يتربى . نجد انه يلقح به وفي الغالب أبواه متنا كدان متشا كسان . ثم اذا تحرك جنينا حرك شراسة أمه فشتمته أو ازداد آلام حياتها فضربته . فاذا ما ضيقت عليه مقره لالفتها الانحاء خمولا أو التضرر صغاراً أو التقلص لضيق الفراش . ومتى ولدته ضغطت عليه بالقماط اقتصاداً أو جهلا فاذا بكى تألما سدت فمه بثديها أو قطعت نفسه بدوار السرير أو سقته مخدراً عجزاً عن نفقة الطبيب فاذا ما فطم يأتيه الغذاء الفاسد يضيق معدته ويفسد مزاجه . فان كان طويل العمر وترعرع يمنع من رياضة اللعب لضيق البيت فان سأل واستفهم ليتعلم يزجر ويلكم لضيق خلق أبويه . فاذا قويت رجلاه

يدفع به الى خارج الباب الى مدرسة الالفة على القذارة وتعلم صيغ الشتائم والسباب . فان عاش ونشأ وضع في مكتب أو عند ذي صنعة ويكون أكبر القصد ربطه عن السراح والمراح . فاذا بلغ الشباب ربطه أولياؤه على وتد الزواج كي لا يبرح يقاسمهم شقاء الحياة ويجني على غيره كما جني عليه أبواه . ثم هو يتولى التضييق على نفسه حتى بثقيل الثياب المانعة حرية حركة جسمه ويتولى المستبدون الضغط والتضييق على عقله ولسانه وعمله وأمله وهكذا يعيش الاسير من حين يكون نسمة في ضيق وضغط يهرول مابين وداع سقم واستقبال سقم الى أن يستقبله الموت مضيعاً دنياه مع آخرته فيموت غير آسف ولا مأسوف عليه .

ولا يظنن المطالع أن حالة الاغنياء أسراء هي خير من هذا بكثير أنهم اذا نغصتهم بعض المنغصات تزيد فيهم مشاق التظاهر بالراحة والرفاه والعزة والمنعة تظاهراً ان صح قليله فكثيره الكاذب حمل ثقيل على عواتقهم .

حياة الاسير تشبه حياة النائم المزعوج بالاحلام فهي حياة لا روح فيها . حياة وظيفتها تمثيل مندرسات الجسم لا علاقة لها بحفظ المزايا البشرية . ولولا أن ليس في الكون شئ غير تابع للنظام حتى فلتات الطبيعة والصدف التي هي مسببات لاسباب نادرة . لحكمنا

بان معيشة الاسراء هي محض فوضي لاشبه فوضي . على أن التدقيق العميق يفيدنا بان للأسراء قوانين غريبة في مقاومة الفناء لا يمكن ضبطها انما الاسير يرضعها مع لبن أمه ويتربي عليها ويبدع فيها بسائق الحاجة ويكون الحاذق فيها عالما الماهر في تطبيقها عملا هو الموافق في ميدان تنازع البقاء والعاجز عنها يتعجله الزوال لاسيما اذا جاءه العجز من جهة زلاقة اللسان أو كبر النفس أو قوة الاحساس أو جسارة الجنان فانه الهالك لامحالة .

قوانين حياة الاسير هي مقتضيات الشؤون المحيطة به التي تضطره لان يطبق احساساته عليها ويدبر نفسه علي موجبها . وذلك نحو مقابلة التجبر عليه بالتذلل والتصاغر . وتعديل الشدة عليه بالتلاين والمطاولة واعطاء المطلوب منه بعد قليل من التمنع واستعمال سياسة الشد والارخاء والكسب مع شكاية الحاجة وحفظ المال بالاخفاء والتعامي عن زلات المستبد والتصامم عن سماع مايحكى عليه والتظاهر بفقد الحس . وستر العلم بالتجاهل والعقل بالتباله . وعزو كل خير الى المستبد وان كان نحو المطر فالي يمنه . واسناد الشرور الى الاستحقاق . والمطالبة بالحقوق بصفة استعطاف . الى غير ذلك من قانون الاساري الذي رؤوس مسائله تمل القاري فضلا عن تفصيلاتها . هذا وأخوف ما يخافه الأسير هو أن يظهر عليه أثر

نعمة الله في المال أو الجسم فتصيبه عين الجواسيس (وهذا أصل عقيدة اصابة العين) أو أن يظهر له شأن في علم أو جاه أو نعمة مهمة فيسعى به حاسدوه الى المستبد (وهذا أصل شر الحسد الذي يتعوذ منه) وقد يتحيل الأسير على حفظ ماله الذي لا يمكنه اخفائه كالزوجة الجميلة أو الدابة الثمينة أو الدار الكبيرة فيحميها باسناد الشؤم « وهذا أصل التشاؤم بالأقدام والنواصي والاعتاب »

وقد اتضح مما تقدم أن التربية الصحيحة غير مقصودة ولا مقدورة في ظلال الاستبداد الا ما قد يكون بالتخويف من شر الظالمين وهذا النوع يستلزم انخلاع القلوب لا تزكية النفوس . وقد أجمع علماء السياسة والاخلاق والتربية على أن الاقناع خير من الترغيب فضلا عن الترهيب وعلى هذه بنو قولهم أن المدارس تقلل الجنايات لا السجون ووجدوا أن القصاص والمعاقبة قلما يفيد أن في زجر النفس كما قال الحكيم العربي

لا ترجع الانفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

ومن يتأمل جيداً في قوله تعالى (ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب) ملاحظ ان معنى القصاص لغة هو التساوي ويدقق النظر في القرآن الكريم وسائر الكتب السماوية ويتبع مسالك الرسل العظام عليهم الصلاة والسلام يرى ان الاعتناء في طريق الهداية

منصرف فيها الى الاقناع ثم الى الاطماع عاجلا أو آجلا ثم الى الترهيب الآجل غالباً ومع ترك أبواب تدلى الى النجاة.

ثم ان التربية التي هي ضالة الأمم وفقدها هو المصيبة العظمى في الشرق هي التربية المرتبة على اعداد العقل للتمييز ثم على حسن التفهيم والاقناع ثم على التمرين والتعويد ثم على حسن القدوة والمثال ثم على المواظبة والتمادي . فاذا كان لا مطمع في التربية العامة على هذه الأصول بمانع طبيعة الاستبداد فلا يكون لعقلاء المبتلين به الا أن يسعوا أولا وراء ازالة المانع الضاغط على العقول. ثم يعتنوا بالتربية حيث يمكنهم حينئذ أن ينالوها على توالي البطون والله الموفق .

﴿ الاستبداد والترقي ﴾

الحركة سنة عاملة في الخليقة دائبة بين شخوص وهبوط . فالترقي هو الحركة الحيوية أي حركة الشخوص ويقابله الهبوط وهو الحركة الى الموت أو الانحلال أو الاستحالة أو الانقلاب وهذه السنة كما هي عاملة في المادة واعراضها عاملة أيضاً في الكيفيات ومركباتها والقول الشارح لذلك آية (ويخرج الحيّ من الميت ويخرج الميت من الحيّ) وحديث (ما تم أمر الا وبدا نقصه)

وقولهم التاريخ يعيد نفسه . وحكمهم بان الحياة والموت حقان طبيعيان .

وهذه الحركة لاتقتضي السير الى النهايه شخوصاً أوهبوطا بل هي أشبه بميزان الحرارة كل ساعة في شأن والعبرة في الحكم للوجهة الغالبة . فاذا رأينا في أمة آثار حركة الترقي هي الغالبة على افرادها حكمنا لها بالحياة . ومتى راينا عكس ذلك قضينا عليها بالموت وذلك لأن الامة هي مجموع افراد يجمعها نسب اووطن أولغة أو دين كما أن البناء مجموع انقاض . فاذا ترقى أوانحط فرض واحدمن امة أثر ذلك في مجموع تلك الامة كما اذ وقفت بعوضة على طرف سفينة عظيمة اثقلتها وأمالتها حقيقةوان لم يدرك ذلك بالمشاعر .

الترقي الحيوي الذي يسعى وراءه الانسان بفطرته هو أولا الترقي في الجسم صحة وتلذذا ثم الترقي في التركيب بالعائلة والعشيرة . ثم الترقي في القوة بالعلم والمال . ثم الترقي في الملكات بالخصال والمفاخر .

وهناك نوع آخر بالترقي يتعلق بالروح وهو ان الانسان يحمل نفساً ملهمة بأن لها وراء حياتها هذه حياة أخرى تترقى اليها على سلم الرحمة والحسنات . فأهل الاديان يؤمنون بالبعث أو التناسخ فيرجون مكافأة ويخافون مجازاة . ومن هم من قبيل الطبيعيين يهتمون

بالحيات التاريخية بحسن الذكر أو قبحه .

وهـذه الترقيات على أنواعها لا يزال الانسان يسعى وراءها مالم يعترضه مانع غالب يسلب ارادته وهذا المانع اماهو القدر المحتوم المسمى عنـد البعض بالعجز الطبيعي أوهو الاستبداد المشؤم على ان القدر قد يصدم سير الترقي لمحة ثم يطلقه فيكر راقياً . وأما الاستبداد فانه يقلب السـير من الترقي الى الانحطاط . من التقدم الى التأخر من النماء الى الفناء ويلازم الأمة ملازمة الغريم الشحيح ويفعل فيها دهراً طويلا أفعاله التي تقـدم وصف بعضها في الابحاث السابقـة أفعاله التي تبلغ بالأمة حطة العجموات فلا يعود يهمها غـير حفظ حياتها الحيوانيـة فقط بل تكون حياتها هـذه الدنيئة أيضا مباحة للاستبداد اباحة ظاهرة أو خفية .

وقد يبلغ فعـل الاستبداد بالأمة ان يحول ميلها الطبيعي من طلب الترقي الى طلب التسفل بحيث لو دفعت الى الرفعة لابت وتألمت كما يتألم الاجهر من النور واذا الزمت بالحرية تشفي وربما تفني كالبهائم الاهلية اذا أطلق سراحها . وعندئذ يصير الاستبداد كالعلق يطيب له المقام على امتصاص دم الأمة فلا ينفك عنها حتى تموت ويموت هو بموتها .

وقد توصف حركة الترقي والانحطاط في الشؤون الحيوية

للانسان بأنها من نوع الحركة الدودية التي تحصل بالاندفاع والانقباض وذلك ان الانسان يولد وهو أعجز حراكا وادراكا من كل حيوان . ثم يأخذ في السير تدفعه (الرغائب) النفسية والعقلية وتقبضه (الموانع) الطبيعية والمزاحمة . وهذا سر ان الانسان يتنابه الخير والشر وهو سر ما ورد في القرآن الكريم من ابتلاء الله الناس بالخير وبالشر . وهو معنى ما ورد في الأثر من أن الخير مربوط بذيل الشر والشر مربوط بذيل الخير . وهو المراد من أقوال الحكماء نحو . على قدر النعمة تكون النقمة على قدر الهمم تأتي العزائم . بين السعادة والشقاء حرب سجال . العاقل من يستفيد من مصيبته والكيس من يستفيد من مصيبته ومصيبة غيره .

اذا تقرر هذا فليعلم أيضا ان سبيل الانسان هو الى الرقي ما دام جناحا الاندفاع والانقباض فيه متوازنين كتوازن الايجابية والسلبية في الكهربائية . وسبيله القهقري ان غلبته الطبيعة أو المزاحمة . ثم ان الاندفاع ان غلب فيه العقل النفس كانت الوجهة الى الحكمة . وان غلبت النفس العقل كانت الوجهة الى الزيغ . أما الانقباض فالمعتدل منه هو السائق للعمل . والقوي منه مهلك مسكن للحركة . والاستبداد المشؤوم الذي نبحث فيه هو قابض

ضاغط مسكن والمبتلون به هم المساكين .

أسراء الاستبداد ولا سيما الفقراء منهم كلهم مساكين لاحراك فيهم فيعيشون منحطين في الادراك منحطين في الاحساس منحطين في الاخلاق . وما أظلم توجيه اللوم عليهم بغير لسان الارشاد وقد أبدع من شبه حالتهم بدود تحت صخرة . وما اليق باللائمين ان يكونوا مشفقين فيسعوا في رفع الصخرة ولو حتاً بالاظافر ذرة بعد ذرة .

قد أجمع الحكماء على ان أهم ما يجب عمله على الآخذين بيد الأمم . الذين فيهم نسمة مروءة وشرارة حمية الذين يعرفون ما هي وظيفتهم بأزاء الانسانية ان يسعوا في رفع الضغط عن العقول لينطلق سبيلها في النمو فتمزق غيوم الاوهام التي تمطر المخاوف .

وعلى ذكر اللوم الارشادي لاح لي أن أصور الرقي والانحطاط في النفس وكيف ينبغي للانسان العاقل أن يعاني ايقاظ قومه وكيف يرشدهم الى انهم خلقوا لغير ما هم عليه من الصبر على الذل والسفالة فيذكرهم ويحرك قلوبهم ويناجيهم بنحو الخطابات الآتية .

ياقوم ينازعني والله الشعور هل موقفي هذا في جمع حي أحييه بالسلام أم أنا أخاطب أهل القبور فأحييهم بالرحمة ياقوم لستم باحياء عاملين ولا أموات مسترحين بل أنتم بين بين في برزخ يسمى التنبت ويصح تشبيهه بالنوم .

«ياقوم هذا كم الله ما هذا الشقاء المديد والناس في نعيم مقيم وعز كريم أفلا تنظرون وما هذا التأخر وقد سبقتكم الاقوام ألوف مراحل حتى صار مابعد ورائكم وراء أفلا تتبعون. وماهذا الانحطاض والناس في أوج الرفعة أفلا تغارون».

«ياقوم وقاكم الله من الشر انتم بعيدون عن مفاخر الابداع وشرف القدوة مبتلون بداء التقليد والتبعية في كل فكر وعمل. وبداء الحرص على كل عتيق. فلماذا تقلدون أجدادكم في الخرافات والأمور السافلات ولا تقلدونهم في محامدهم. أين الدين أين التربية أين الاحساس أين الغيرة أين الجسارة أين الثبات أين الرابطة أين المنعة أين الشهامة أين النخوة أين الفضيلة أين المواساة هل تسمعون أم أنتم نائمون».

«ياقوم عافاكم الله الى متى هذا النوم والى متى هذا التقلب على فراش البأس ووسادة اليأس. أنتم مفتحة عيونكم ولكنكم نيام لكم أبصار ولكنكم لاتنظرون وهكذا لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور لكم سمع وشم وذوق ولمس ولكنكم لاتشعرون بها ما هي اللذائذ حقا وماهي الآلام. ولكم رؤس كبيرة ولكنها مشغولة بمزعجات الاوهام والاحلام ولكم نفوس ولكن لاتعرفون لها قدراً ومقاما».

« ياقوم قاتل الله الغباوة فانها تملا القلوب رعباً من لاشئ وخوفا من كل شئ وتفهم الرؤوس تشويشا وسخافة اليست هى الغباوة جعلتكم كأنكم قد مسكم الشيطان فتخافون من ظلمكم وترهبون من قوتكم وتجيشون منكم عليكم جيوشا ليقتل بعضكم بعضا تترامون على الموت خوف الموت وتحسبون طول العمر فكركم في الدماغ ونطقكم فى اللسان واحساسكم في الوجدان خوفاً من ان يحبس الظالمون أرجلكم أياما ».

«ياقوم اعيذكم بالله من فساد الرأي وضياع الحزم وفقد الثقة بالنفس وترك الارادة للغير . فهل ترون أثرا للرشد في أن يوكل الانسان عنه وكيلا ويطلق له التصرف فى ماله وأهله والتحكم فى حياته وشرفه والتأثير على دينه وفكره مع تسليف هذا الوكيل العفو عن كل عبث وخيانة واسراف واتلاف أم ترون ان هذا نوع من الجنة به يظلم الانسان نفسه . بلى (ان الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس انفسهم يظلمون» .

«ياقوم شفاكم الله قد ينفع اليوم الانذار واللوم واما غداً اذا حل القضاء فلا يبقى لكم غير الندب والبكاء فالى متى هذا التخادع والى متى هذا التوانى . والى متى هذا التواكل هل طاب لكم هذا الذل وتودون لو تصحبونه في القبور . ام عاهدتم انفسكم ان تصلوا

غفلة الحياة بالممات فلا تفيقوا من السبات قبل صباح يوم النشور »

« ياقوم رحمكم الله ماهذا الحرص على حياة تعيسة دنيئة لا تملكونها ساعة . ماهذا الحرص على الراحة الموهومة وحياتكم كلها تعب ونصب . هل لكم في هذا الصبر فخر أو لكم عليه اجر كلا والله ساء ماتتوهمون ليس لكم الا القهر في الحياة وقبيح الذكر بعد الممات لأنكم ما أفدتم ولا استفدتم من الوجود بل أتلفتم ما ورثتم عن السلف وصرتم بئس الواسطة للخلف .

« ياقوم حماكم الله قد جاءكم المستمتعون من كل حاب ينسلون فان وجدوكم ايقاظا عاملوكم كما يتعامل الجيران ويتجامل الاقران وان وجدوكم رقودا لا تشعرون سلبوا أموالكم وزاحموكم على أرضكم وتحيلوا على تذليلكم وربطكم واتخاذكم كالانعام . وعندئذ لو أردتم حراكا لا تقوون وتجدون في وجوهكم الابواب موصدة والمسالك مسدودة لا نجاة ولا مخرج » .

« ياقوم هون الله مصابكم تشكون من الجهل ولا تنفقون على التعليم نصف ماتصرفون على التدخين تشكون من الحكام وهم اليوم منكم فلا تسعون في اصلاحهم . تشكون فقد الرابطة ولكم رابط من وجوه لا تفكرون في أحكامها . تشكون الفقر ولا سبب له غير الكسل هل ترجون الصلاح وأنتم يخادع بعضكم بعضا ولا تخدعون

الا أنفسكم ترضون بأدني المعيشة عجزاً تسمونه قناعة وتهملون شؤونكم تهاونا تسمونه توكلا تموهون عن جهلكم الاسباب بقضاء الله وتدفعون عار المسببات بعطفها على القدر ألا والله ماهذا شأن البشر

(ياقوم سامحكم الله . لا تظلموا الاقدار وخافوا غيرة المنعم الجبار ألم يخلقكم أحراراً لا يثقلكم غير النور والنسيم فأبيتم الا أن تحملوا على عواتقكم ظلم الضعفاء وقهر الاقوياء لوشاء كبيركم أن يحمل صغيركم كرة الارض لحنى له ظهره ولو شاء أن يركبه لطأطأله رأسه ماذا استفدتم من هذا الخضوع والخشوع لغير الله وماذا تؤملون من تقبيل الاذيال والاعتاب . أليس منشأ هذا الصغار والهوان هو ضعف ثقتكم بأنفسكم كأنكم عاجزون عن تحصيل ماتقوم به الحياة وحسب الحياة لقيمات من نبات تقمن ضلع ابن آدم وقد بذلها الخلاق . لأضعف الحيوان . فما بال الرجل منكم يضع نفسه مقام الطفل الذي لا ينال من الكبير مراده الا بالتذلل والبكاء أو موضع الشيخ الفاني الذي لا ينال حاجته الا بالتملق والدعاء)

(ياقوم رفع الله عنكم المكروه ماهذا التفاوت بين أفرادكم وقد خلقكم ربكم اكفاء في البنية اكفاء في القوة اكفاء في الطبيعة اكفاء في الحاجات لا يفضل بعضكم بعضاً الا بالفضيلة لا ربوبية بينكم ولا عبودية والله ليس بين صغيركم وكبيركم غير برزخ من الوهم . ولو

درى الصغير بوهمه العاجز بوهمه . مافي نفس الكبير من الخوف منه لزال الاشكال وقضى الامر الذي فيه تختلفون وفيه تشقون)

(ياقول جعلكم الله من المهتدين . كان أجدادكم لاينحنون الا ركوعا لله وأنتم تسجدون لتقبيل أرجل المنعمين ولو بلقمة مغموسة بدم الاخوان . وأجدادكم ينامون الآن في قبورهم مستويين اعزاء وأنتم أحياء معوجة رقابكم أذلاء البهائم تودلو تنتصب قاماتها وأنتم من كثرة الخضوع كادت تصير أيديكم قوائم . النبات يطلب العلو وأنتم تطلبون الانخفاض . لفظتكم الارض لتكونوا على ظهرها وأنتم حريصون على أن تغرسوا في جوفها . فان كانت هذه بغيتكم فاصبروا قليلا لتناموا فيها طويلا)

(ياقوم ألهمكم الله الرشد متى تستقيم قاماتكم وترتفع من الارض إلى السماء انظاركم وتميل الى التعالى نفوسكم فيستقل كل انسان منكم بذاته يملك ارادته واختياره ويثق بربه ونفسه لا يتكل على أحد من خلق الله اتكال الغاصب على مال الغافل أو الكل على سعي العامل بل يعتمد على المبادلة والتعاوض وحينئذ يظهر بينكم حكم التضامن والتقاضي فتصيرون بنعمة الله اخوانا)

« ياقوم أبعد الله عنكم المصائب وبصركم بالعواقب ان كانت المظالم غلت أيديكم وضيقت أنفاسكم حتى صغرت نفوسكم وهانت

عليكم هذه الحياة وأصبحت لا تساوي عندكم الجد والجهد وأمسيتم لا تبالون أتعيشون أم تموتون. فهلا تخبرونى لماذا تحكمون فيكم الظالمين حتى في الموت. أليس لكم من الخيار أن تموتوا كما تشاؤن لا كما يشاء الظالمون هل سلب الاستبداد ارادتكم حتى في الموت. كلا والله: ان أنا أحببت الموت أموت كما أحب لئيما أو كريما حتفاً أو شهيداً فان كان الموت ولا بد فلماذا الجبانة وان أردت الموت فليكن اليوم قبل الغد وليكن بيدي لا بيد عمرو. أليس

وطعم الموت في شئ حقير كطعم الموت في شئ عظيم

«ياقوم أناشدكم الله ألا أقول حقاً إذا قلت انكم لا تحبون الموت بل تحرصون على الحياة ولكنكم تجهلون الطريق فتهربون من الموت إلى الموت ولو علمتم السبيل لعلمتم ان الهرب من الموت موت وطلب الموت حياة. وان الخوف من التعب تعب والاقدام على التعب راحة وان الحرية هى شجرة الخلد وسقياها قطرات من الدم المسفوح. والاسارة هي شجرة الزقوم وسقياها أنهر من دم المخاليق المخانيق.

«ياقوم وأعنى منكم المسلمين. قال نبيكم الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم (لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليستعملن الله عليكم شراركم فليسومونكم سوء العذاب) وقال (من رأي منكم منكراً فليغيره بيده وان لم يستطع فبلسانه وان لم يستطع فبقلبه وذلك

أضعف الايمان »

وأنتم تعلمون إجماع أئمة مذاهبكم كلها على أن أنكر المنكرات بعد الكفر هو الظلم الذي فشافيكم ثم قتل النفس ثم وثم وقد أوضح العلماء أن تغيير المنكر بالقلب هو بغض المتلبس به بغضاً فى الله . بناء عليه فمن يعامل الظالم أو الفاسق غير مضطر أو يجامله ولو بالسلام يكون قد خسر أضعف الايمان وما بعد الاضعف الا العدم أي فقد الايمان والعياذ بالله .

ولا اظنكم تجهلون أن كلمة الشهادة والصوم والصلاة والحج والزكاة كلها لا تغنى شيئا مع فقد الايمان . انما يكون القيام حينئذ بهذه الشعائر قياما بعادات وتقليدات وهو سات تضيع بها الأموال والأوقات .

بناء عليه فالدين يكلفكم ان كنتم مسلمين والحكمة تلزمكم إن كنتم عاقلين ان تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر جهدكم ولا أقل فى هذا الباب من إبطانكم البغضاء للظالمين والفاسقين وأظنكم اذا تأملتم قليلا ترون هذا الدواء السهل المقدور لكل انسان منكم يكفى لانقاذكم مما تشكون . والقيام بهذا الواجب متعين على كل فرد منكم بنفسه . ولو أهمله كافة المسلمين ولو ان أجدادكم الأولين قاموا به لما وصلتم إلى ما أنتم عليه من الهوان .

« ياقوم وأعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين أدعوكم إلى تناسى الاساآت والأحقاد . وما جناه الآباء والاجداد . فقد كفي ما فعل ذلك على أيدي المثيرين وأجلكم من أن لا تهتدوا لوسائل الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون فهذه أمم أوستريا وأمريكا قد هداها العلم لطرائق شتى وأصول راسخة للاتحاد الوطني دون الديني والوفاق الجنسي دون المذهبي والارتباط السياسي دون الاداري فما بالنا نحن لا نفتكر في أن نتبع إحدى تلك الطرائق أو شبهها فيقول عقلاؤنا لمثيري الشحناء من الاعجام والاجانب ودعونا ياهؤلاء نحن ندبر شأننا نتفاهم بالفحصاء ونتراحم بالاخاء ونتواسى في الضراء ونتساوى في السراء . دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الاديان تحكم في الأخرى فقط . دعونا نجتمع على كلمات سواء ألا وهي (فلتحى الأمة فليحى الوطن فلنحى طلقاء أعزاء)

أدعوكم وأخص منكم النجباء للتبصر والتبصير فيما اليه المصير أليس مطلق العربي أخف استحقاراً لأخيه من الغربي هذا الغربي قد أصبح ماديا لا دين له غير الكسب فما تظاهره مع بعضنا بالاخاء الديني إلا مخادعة وكذبا . هؤلاء الفرنسيس يطاردون أهل الدين ويعملون على أنهم يتناسونه بناء عليه لا تكون دعواهم الدين في الشرق الا كما يغرد الصياد وراء الاشباك . الغربي أرقى من الشرقي علماً

وثروة ومنعة فله على الشرقيين اذا واطنهم السيادة الطبيعية . أما الشرقيون فيما بينهم فمتقاربون لا يتغابنون . الغربي يعرف كيف يسوس وكيف يتمتع وكيف يأسر وكيف يستأثر فمتى رأى فيكم استعداداً واندفاعا لمجاراته أو سبقه ضغط على عقولكم لتبقوا وراءه شوطا كبيراً كما يفعل الروس مع البولونيين واليهود والتاتار . وكما هو شأن دول الاستعمار . الغربي مهما مكث في الشرق لا يخرج عن أنه تاجر مستمتع فيأخذ فسائل الشرق ليغرسها في بلده التى لا يفتأ يفتخر برياضها ويحن الى أرباضها .

قد مضى على الهولانديين في الهند وجزائرها وعلى الروس في قازان مثل ما أقمنا في الاندلس ولكن ماخدموا العلم والعمران بعشر ما خدمناهما ودخل الفرنساويون الجزائر منذ سبعين عاما ولم يسمحوا بعد لأهلها بجريدة واحدة تقرأ . نرى الانكليزي في بلادنا يفضل قديد بلاده وسمك بحاره على طري لحمنا وسمكنا فهلا والحالة هذه تبصرون يا أولى الألباب .

وأنت أيها الشرق الفخيم رعاك الله . ماذا أدهاك ماذا أقعدك عن مسراك أليست أرضك تلك الأرض ذات الجنان والافنان ومنبت العلم والعرفان . وسماؤك تلك السماء مصدر الانوار ومهبط الحكمة والاديان وهواؤك ذاك النسيم العدل لا العواصف والضباب

وماؤك ذاك العذب الغدق لا الكدر ولا الاجاج.

رعاك الله ياشرق . ماذا أصابك فأخل نظامك والدهر ذاك الدهر ما غير وضعك ولا بدل شرعه فيك ألم تزل مناطقك هي المعتدلة وبنوك هم الفائقون فطرة وعدداً أليس نظام الله فيك على عهده الأول ورابطة الاديان في بنيك محكمة قويمة مؤسسة على عبادة الصانع الوازع أليست معرفة المنعم حقيقة راهنة أشرقت فيك شمسها أيدت بها عز النفس وأحكمت بها حب الوطن وحب الجنس .

رعاك الله ياشرق ماذا عراك وسكن منك الحراك ألم تزل أرضك واسعة خصبة . ومعادنك وافية غنية وحيوانك رابيا متناسلا وعمرانك قائما متواصلا . وبنوك على ما ربيتهم أقرب للخير من الشر أليس عندهم الحلم المسمى عند غيرهم ضعفا في القلب وعندهم الحياء المسمى بالجبانة وعندهم الكرم المسمى بالاتلاف وعندهم القناعة المسماة بالعجز وعندهم العفة المسماة بالبلاهة . وعندهم المجاملة المسماة بالذل . نعم ماهم بالسالمين من الظلم ولكن فيما بينهم ولا من الخداع ولكن لا يفتخرون به ولا من الاضرار ولكن مع الخوف من الله .

رعاك الله ياشرق . لا نرى من غير الدهر فيك ما يستوجب هذا الشقاء لبنيك ويستلزم ذلهم لبنى أخيك فلماذا قد أصبحت اذا انقطع عنك مدد أخيك بمصنوعاته يبقى أبناؤك عراة حفاة فى ظلام

بل يمنيهم فقد الحديد بالرجوع الى العصر النحاسي بل الحجري الموصوف بعصر التعفين .

رعاك الله ياشرق . بل رعى الله أخاك الغرب العائل بنفسه والعائل فيك وقاتل الله الاستبداد بل لعن الله الاستبداد المانع من الترقي في الحياة المنحط بالأمم الى أسفل الدركات ألا بعداً للظالمين .

رعاك الله ياغرب . وحياك وبياك قد عرفت لاخيك سابق فضله عليك فوفيت وكفيت وأحسنت الوصاية وهديت وقد اشتد ساعد بعض أولاد أخيك فهلا ينتدب بعض شيوخ أحرارك لاعانة انجاب أخيك على هدم ذاك السور سور الشؤوم والشرور ليخرجوا باخوانهم الى أرض الحياة أرض الانبياء الهداة فيشكرون فضلك والدهر مكافأة .

ياغرب لايحفظ لك الدين غير الشرق ان دامت حياته بحريته وفقد الدين يهددك بالخراب القريب فماذا أعددت للفوضيين اذ صاروا جيشاً جراراً هل تعدلهم المواد المتفرقعة وقد جاوزت أنواعها الالف أم تعدلهم الغازات الخانقة وقد سهل استحضارها على الصبيان

ياقوم وأريد بكم شباب اليوم رجال الغد شباب الفكر رجال الجد أعيذكم من الخزى والخذلان بتفرقة الاديان وأعيذكم من الجهل

جهل أن الدينونة لله وهو سبحانه ولى السرائر والضمائر ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة .

أناشدكم ياناشئة الاوطان أن تعذروا هؤلاء الواهنة الخائرة قواهم واسألكم عفوهم من العتاب والملام لانهم مرضى مبتلون مثقلون بالقيود ملجمون بالحديد يقضون حياة خير مافيها انهم آباؤكم

قدعلمتم يانجباء من طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد جملا كافية للتأمل والتدبر فاعتبروا بنا واسألوا الله العافية . نحن ألفنا الادب مع الكبير ولو داس رقابنا . ألفنا الثبات ثبات الاوتاد تحت المطارق ألفنا الانقياد ولو الى المهالك . ألفنا أن نعتبر التصاغر أدبا والتذلل لطفاً والتملق فصاحة واللكنة رزانة وترك الحقوق سماحة وقبول الاهانة تواضعاً والرضا بالظلم طاعة ودعوى الاستحقاق غروراً والبحث عن العموميات فضولا ومد النظر الى الغد أملا طويلا والاقدام تهوراً والحمية حماقة والشهامة شراسة وحرية القول وقاحة وحرية الفكر كفراً وحب الوطن جنونا .

أما أنتم حماكم الله من السوء فنرجو لكم ان تنشأوا على غير ذلك أن تنشأوا على التمسك بأصول الدين دون أوهام المتفننين فتعرفوا قدر نفوسكم فى هذه الحياة فتكرمونها وتعرفوا قدر أرواحكم وانها خالدة تثاب وتجزى وتتبعوا سنن النبيين فلا تخافون غير الصانع

الوازع العظيم ونرجو لكم أن تبنوا قصور فخاركم على معالى الهمم ومكارم الشيم لا على عظام نخرة وأن تعلموا أنكم خلقتم أحراراً فتموتوا كراما فاجهدوا أن تحيوا تلكما اليومين حياة رضية يتسنى فيها لكل منكم أن يكون سلطانا مستقلا فى شؤونه لا يحكمه غير الحق وشريكا أمينا لقومه يقاسمهم ويقاسمونه الشقاء والهناء وولداً باراً لوطنه لا يبخل عليه بجزء من فكره ووقته وماله ومحبا للانسانية يعمل على أن خير الناس أنفعهم للناس . يعلم أن الحياة هى العمل ووباء العمل القنوط . والحياة هي الأمل ووباء الأمل التردد ويفقه أن القضاء والقدر هما عند الله ما يعلمه ويمضيه وهما عند الناس السعى والعمل ويوقن ان كل أثر على ظهر الارض من عمل اخوانه البشر فلا يتخيل فى نفسه عجزاً ولا يتوقع الاخيراً وخير الخير أن يعيش حراً أو يموت .

ياقوم جعلكم الله خيرة اليوم وعدة الغد . هذا خطابى اليكم فيما هو الترقى وما هو الانحطاط فان وعيتم ولو شذرات فيا بشراي والسلام عليكم والافياضياع الانفاس وعلى الرفاة السلام .

الاستبداد الذى يبلغ فى الانحطاط بالأمة الى غاية أن تموت ويموت هو معها كثير الشواهد فى قديم الزمان وحديثه اما بلوغ الترقى بالامم الى المرتبة القصوى السامية التى تليق بالانسانية فهذا لم يسمح الزمان حتى الآن بأمة تصلح مثالا له حيث لم توجد أمة

حكمت نفسها برأيها العام حكما لا يشوبه نوع من الاستبداد ولو باسم الوقار والاحترام أو بنوع من الاغفال ولو بذر الشقاق الديني أو الجنسي بين الناس فكان الحكمة الالهية لم تزل ترى البشر غير متأهلين لنوال سعادة الاخوة العمومية بالتحابب بين الافراد والقناعة بالمساواة الحقوقية بين الطبقات . نعم وجد للترقي القريب من الكمال بعض أمثال قليلة في القرون الغابرة كالجمهورية الثانية للرومان وكعهد الخلفاء الراشدين وكازمنة المنقطعين في عهد بعض الملوك المنظمين لا الفاتحين مثل أني شروان وعبد الملك الأموي ونور الدين الشهيد وبطرس الكبير . وكبعض الجمهوريات الصغيرة والممالك الموفقة لاحكام التقييد الموجودة في هذا الزمان واني أقتصر على وصف منتهى الترقي الذي وصلت اليه تلك الامم وصفا اجماليا وأترك للمطالع أن يوازن بينها ويقيس عليها درجات سائر الامم .

وربما يستريب في ذلك المطالع المولود في أرض الاستبداد الذي لم يدرس أحوال الامم في الوجود ولا عتب عليه فانه كالمولود أعمى لا يدرك للمناظر البهية معنى .

قد بلغ الترقي في الاستقلال الشخصي في ظلال الحكومات العادلة لان يعيش الانسان المعيشة التي تشبه في بعض الوجوه ما وعدته الاديان لاهل السعادة في الجنان حتى أن كل فرد يعيش كانه خالد

بقومه ووطنه وكأنه أمين على كل مطلب .

(١) أمين على السلامة في جسمه وحياته بحراسة الحكومة التي لا تغفل عن محافظته بكل قوتها في حضره وسفره .

(٢) أمين على الملذات الجسمية والفكرية باعتناء الحكومة في الشؤون العامة المتعلقة بالترويضات الجسمية والنظرية والعلقية حتى يخال له ان تسهيل الطرقات والتزينات البلدية والمنتزهات والمنتديات والمدارس والمجامع ونحو ذلك قد وجدت كلها لاجله خاصة .

(٣) أمين على الحرية كأنه خلق وحده على سطح هذه الارض فلا يعارضه معارض فيما يخص شخصه من دين وفكر وعمل .

(٤) أمين على النفوذ كأنه سلطان عزيز فلا ممانع له ولا معاكس في تنفيذ مقاصده النافعة في الأمة التي هو منها .

(٥) أمين على المزية كأنه في أمة يساوي جميع افرادها منزلة وشرفا فلا يفضل هو على أحد ولا يفضل أحد عليه الا بمزية سلطان الفضيلة فقط

(٦) أمين على العدل كأنه هو القابض على ميزان الحقوق فلا يخاف تطفيفا وهو المثمن فلا يحذ بخسا وهو المطمئن على انه اذا استحق أن يكون ملكا صار ملكا وإذا جنى جناية نال جزاءه لا محالة .

(٧) أمين على المال والملك كأن ما أحرزه بوجهه المشروع قليلا كان أو كثيراً قد خلقه الله لاجله فلا يخاف عليه كما أنه تقلع عينه ان

نظر إلى مال غيره .

(٨) أمين على الشرف بضمان القانون بنصرة الأمة ببذل الدم فلا يرى تحقيرا الالدى وجدانه ولا يعرف طعما لمرارة الذل والهوان والصغار .

وقد يبلغ الترقي في التركيب بالعائلة والعشيرة أن يعيش الانسان معتبرا نفسه عضوا حقيقيا من جسم . فالجسم الحي عند المتمدنين هو مجموع الأمة . والانقسام إلى عائلات وأفراد هو من قبيل انقسام المدينة الى بيوت والبيوت إلى مرافق وكما أنه لا بد لكل مرفق من وظيفة يصلح لها والا كان بناؤه عبثا يستحق الهدم كذلك الافراد في الأمم لا بد أن يعد كل منهم نفسه لوظيفة في قيام حياة قومه . ولهذا يكون من لا يصلح لوظيفة أو لا يقوم بما يصلح له بل يريد أن يعيش كلا عليهم لا عن عجز طبيعي حقيراً يستحق الموت لا الشفقة لانه كالدرن فى الجسم أو الزائد من الظفر يستحقان الاخراج والقطع ولهذا المعنى حرمت الشرائع السماوية الملاهي التى ليس فيها ترويض والسكر المعطل عن المعمل والمقامرة والربا لانهما ليسا من نوع العمل والتبادل فيه . وقد فضل الناس الكناس عن الحجام لان صنعته أنفع للجمهور وهكذا صانع الخبز أفضل من ناظم الشعر .

الانسان الحر مالك لنفسه تماما ومملوك لقومه تماما . ومتى يبلغ

ترقى التركيب في أمة لهذه المرتبة بحيث يصير كل فرد مستعدا الان يفتدى أمته بماله وروحه فعندئذ تصبح الأمة في غنى عن ماله وروحه

أما الترقي في العز بالعلم والمال فيتميز على باقى الترقيات تميز الرأس على باقى أعضاء الجسم فكما ان الرأس باحرازه مركزية العقل ومركزية أكثر الحواس تميز على باقى الاعضاء واستخدمها في حاجاته فكذلك الحكومات المنتظمة يترقى أفرادها ومجموعها في العلم والثروة فيكون لهم سلطان طبيعي على الافراد أو الأمم التي انحط بها الاستبداد المشؤوم الى حضيض الجهل والفقر.

بقي علينا بحث الترقي في الكمالات بالخصال والاثرة وبحث الترقي الذى يتعلق بالروح أي بماوراء هذه الحياة ويرقى اليه الانسان على سلم الرحمة والحسنات فهذه أبحاث طويلة الذيل ومتابعها حكميات الكتب السماوية ومدونات الاخلاق وتراجم مشاهير الأمم.

واكتفى بالقول في هذا النوع انه يبلغ بالانسان مرتبة ان لا يرى لحياته أهمية إلا بعد درجات. الأولى منها حياة أمته ثم حريته ثم شرفه ثم عائلته ثم وثم. وقد تشمل احساساته عالم الانسانية كله. قومه البشر ووطنه الارض كما انه قد يترفع عن الامارة لما فيها من معنى الكبر وعن التجارة لما فيها من التمويه والتبذل فيرى الشرف كل الشرف في القلم ثم المحراث ثم المطرقة وخلاصة القول

ان الأمم التي أسعدها جدها لتبديد استبدادها نالت من الشرف الحسي والمعنوي مالا يخطر على فكر أسراء الاستبداد فهذه بلجيكا أبطلت التكاليف الاميرية برمتها مكتفية في نفقاتها بنماء فوائد بنك الحكومة وهذه سويسرة يصادفها كثيراً أن لا يوجد في سجونها محبوس . وهذه امريكا أثرت حتى كادت تخرج الفضة من مقام النقد الى مقام المتاع . وهذه اليابان أصبحت تستنزف قناطير الذهب من أوربا وامريكا ثمن امتيازات اختراعاتها وطبع مؤلفاتها.

نعم وقد نالت أيضا تلك الأمم حظا من الملذات الحقيقية التي لا تخطر على فكر الاسراء كلذة العلم وتعليمه ولذة المجد والحماية ولذة الاسراء والبذل ولذة احراز الاحترام في القلوب ولذة نفوذ الرأي الصائب الى غير هذه من الملذات الروحية وأما الاسراء والجهلاء فملذاتهم مقصورة على مشاركة الوحوش الضارية في جعلها بطونها مقابر للحيوانات ومزابل للنباتات وعلى استفراغهم الشهوة كأن أجسامهم خلقت دملا على أديم الارض وظيفتها توليد الصديد ودفعه .

وأنفع ما بلغه الترقي في البشر هو إحكامهم أصول الحكومات المنتظمة وبناؤهم سداً متينا في وجه الاستبداد وذلك بجعلهم لا قوة فوق الشرع ولا نفوذ لغير الشرع والشرع هو حبل الله المتين.

وبجعلهم قوة التشريع في يد الامة والامة لا تجتمع على ضلال . وبجعلهم المحاكم تحاكم السلطان والصعلوك على السواء وتكاد تحاكي في عدالتها المحكمة الكبرى الالهية وبجعلهم مأموري الحكومة القائمين بالاعمال العومية لا سبيل لهم على تعدي حدود وظائفهم كأنهم ملائكة لا يعصون أمراً وبجعلهم الامة يقظة ساهرة على مراقبة سير حكومتها لا تغفل ولا تتسامح كما أن الله عز وجل لا يغفل عما يفعل الظالمون وهكذا لما اهتدوا لاصلاح شؤونهم نجاهم الله من الهلاك . هلاك الاستبداد . لأنه تعالى شأنه لا يهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون .

هذا مبلغ الترقي الذى وصلت اليه الأمم منذ عرف التاريخ على انه لم يقم دليل الى الآن على ترقي البشر في السعادة الحيوية كما كانوا عليه في العصور الخالية حتى الحجرية حتي منذ كانوا عراة يسرحون أسرابا والآثار المشهودة لا تدل على أكثر من ترقي العلم والعمران وهما آلتان كما يصلحان للاسعاد يصلحان للاشقاء وترقيهما هو من سنة الكون التى أرادها الله تعالى لهذه الارض وبنيها ووصف لنا ما سيبلغ اليه ترقى زينتها واقتدار أهلها بقوله عز شأنه (حتي اذا أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كان لم تغن بالامس) وهذا يدل على

أن الدنيا وبنيها لم يزالا فى مقتبل الترقى لا كما يظن الخاملون الذين كانهم خلقوا أذى أوسدى .

﴿ الاستبداد والتخلص منه ﴾

ليس لنا في هذا الباب مدرسة أعظم من التاريخ الطبيعى والعمومى ولا برهان أقوى من الاستقراء ومن تتبعهما يرى أن الانسان عاش دهراً طويلا فى حالة طبيعية بطوناً واسراباً يسوسه الشيوخ الاكثر خبرة ويقوده الاقوياء بنية . ثم عاش حينا من الدهر فى حالة بدوية عشائر وقبائل يسوسه شيوخ البطون والافخاذ تحت رئاسة أمير منفذ لما يقررون لايداخلهم في الرأى غالبا وهم يتبعون نظاما بسيطاً اداريا ولهم قواعد قليلة قضائية رائدها العدالة الوجدانية أو النظام التقليدى ولم يزل نصف الانسان على تلكما الحالتين الى الآن .

والنصف الثاني من البشر أرادوا التوسع فى المعيشة فسجنوا أنفسهم بجدران القرى والمدن فتوسعوا ولكن في الشقاء والذل لان أكثرهم لم يهتدوا حتى الآن للطريق المثلى فى سياسة جمعياتهم وهذا هو سبب تنوع أشكال الحكومات وعدم استقرار أمة على شكل مرضى عام . انما هى تقلبات على سبيل التجريب وبحسب تغلب أحزاب الاجتهاد أو أحزاب الاستبداد .

وتقرير شكل الحكومة هو أعظم وأقدم مشكلة في البشر

وهو المعترك الاكبر لافكار الباحثين والميدان الذى قل في البشر من لايجول فيه على فيل من الفكر أو جمل من الجهل أو فرس من الفراسة أو على حمار من الحمق حتى جاء الزمن الاخير فجال فيه إنسان الغرب جولة المغوار الممتطي في التدقيق مراكب البخار فقرر قواعد أساسية في هذا الباب تضافر عليها العقل والتجريب وحصحص فيها الحق اليقين فصارت تعد من المقررات الاجماعية عند الامم المترقية : على أن هذه الامم لم تزل أيضا منقسمة الي أحزاب سياسية يختلفون شيعا في وجوه تطبيق أصول تلك القواعد وفروعها على أحوالهم الخصوصية وهذه القواعد وان كانت قد صارت قضايا بديهية فى الغرب لم تزل مجهولة أو غريبة أو منفوراً منها في الشرق لانها عند الاكثرين منهم لم تطرق سمعهم وعند البعض لم تنل التفاتهم وتدقيقهم وعند آخرين لم تحز قبولا لانهم ذوو غرض أو مسروقة قلوبهم أو في قلوبهم مرض .

وإنى أطرح لتدقيق المطالعين رؤوس مسائل بعض المباحث التى تتعلق بها الحياة السياسية . وقبل ذلك أذكرهم بانه قد سبق في تعريف الاستبداد بأنه هو الحكومة التي يوجد بينها وبين الامة رابطة معينة معلومة مصونة بقانون نافذ الحكم كما استلفت نظرهم الى أنه لاعبرة بيمين من يتولى السلطة أيا كان ولا بعهده على مراعاة الدين والتقوى والحق والشرف والعدالة ومقتضيات المصلحة العامة وأمثال ذلك من

القضايا الكلية المبهمة التى تدور على ألسنة كل بر وفاجر . وماهي فى الحقيقة الا كلام فارغ . لان المجرم لا يعدم تأويلا ولان من طبيعة القوة الاعتساف ولان القوة لا تقابل الا بالقوة . ثم فلنرجع للمباحث التى أريد طرحها لتدقيق المطالعين وهى .

١ (مبحث ماهى الامة أي الشعب) هل هي ركام مخلوقات نامية أو جمعية عبيد لمالك متغلب . أم هى جمع بينهم روابط جنس ولغة ووطن وحقوق مشتركة .

٢ (مبحث ماهي الحكومة) هل هى إنسان وأعوانه يتسلطون على الرقاب والدماء والشرف والمال يفعلون ما يشاؤن أم هى وكالة سياسية تقام من قبل الامة لاجل إدارة شؤونها المشتركة العامة .

٣ (مبحث ماهى الحقوق العمومية) هل للحكومة صفة المالكية . أم صفة الامانة والنظارة على الاملاك العمومية مثل الاراضى والمعادن والانهر والسواحل والقلاع والمعابد والاساطيل والمعدات ومثل حقوق المعاهدات والاستعمار ومثل حقوق إقامة الحكومة وتأمين العدالة وتسهيل الترقى الاجتماعى وايجاد التضامن الافرادى . الى غير ذلك مما يحق لكل فرد أن يتمتع به وان يطمئن عليه

٤ (مبحث التساوى فى الحقوق) هل للحكومة التصرف فى الحقوق العامة المادية والادبية كما تشاء بذلا وحرمانا . أم تكون

الحقوق محفوظة للجميع على التساوي والشيوع أو موزعة على الفصائل والبلدان والصنوف والاديان بنسبة عادلة .

٥ (مبحث الحقوق الشخصية) هل الحكومة تملك السيطرة على الاعمال والافكار . أم أفراد الامة أحرار فى الفكر مطلقاً وفى الفعل مالم يخالف القانون الاجتماعى لانهم أدرى بمنافعهم الشخصية

٦ (مبحث نوعية الحكومة) هل الاصلح هي الملكية المطلقة من كل زمام . أم الملكية المقيدة وماهى القيود . أم الرئاسة الانتخابية الدائمة مع الحياة أو الموقتة . وهل تنال بالوراثة أو العهد أو الغلبة وهل يكون ذلك كما تشاء الصدفة أم مع وجود شرائط الكفاءة وماهى تلك الشرائط وكيف يصير تحقيق وجودها وكيف يراقب استمرارها

٧ (مبحث ماهى وظائف الحكومة) هل هى إدارة شؤون الأمة حسب الرأى والاجتهاد . أم تكون مقيدة بقانون موافق لرغائب الامة وان خالف الاصلح . واذا اختلفت الحكومة مع الأمة فى اعتبار الصالح والمضر فهل على الحكومة أن تعتزل الوظيفة

(٨) (مبحث حقوق الحاكمية) هل للحكومة أن تخصص بنفسها لنفسها ماتشاء من مراتب العظمة وروات المال وتحابى من تريد بما تشاء من حقوق الامة وأموالها . أم يكون التصرف فى ذلك كله إعطاء وتحديداً ومنعاً منوطاً بالامة .

٩ (مبحث طاعة الأمة للحكومة) هل للحكومة تكليف الانقياد المطلق . أم عليها الاعتناء بوسائل التفهم والاقناع ولو اجمالا لتتأتى الطاعة باخلاص .

١٠ (مبحث توزيع التكليفات) هل يكون وضع الضرائب مفوضاً لرأى الحكومة أم الامة تقرر النفقات اللازمة وتعين مواد المال وترتب طرائق جبايته وحفظه .

١١ (مبحث إعداد المنعة) هل يكون إعداد القوة بالتجنيد والتسليح استعداداً للدفاع مفوضاً لارادة الحكومة اهمالاً أو اقلالا أو اكثاراً أو استعمالا على قهر الامة أم يحرص على أن يكون ذلك برأى الامة وتحت أمرها بحيث تكون القوة منفذة رغبة الامة لا رغبة الحكومة .

١٢ (مبحث المراقبة على الحكومة) هل تكون الحكومة لا تسأل عما تفعل . أم يكون للامة حق السيطرة عليها لان الشأن شأنها فلها أن تنيب عنها وكلاء لهم حق الاطلاع على كل شئ وتوجيه المسؤولية على أيّ كان .

١٣ (مبحث حفظ الامن العام) هل يكون الشخص مكلفا بحراسة نفسه ومتعلقاته أم تكون الحكومة مكلفة بحراسته مقيما ومسافراً حتى من بعض طوارئ الطبيعة بالحيلولة لا بالمجازاة والتعويض

١٤ (مبحث حفظ السلطة فى القانون) هـل يكون للحكومة إيقاع عمل إكراهى على الافراد برأيها أى بدون الوسائط القانونية أم تكون السلطة منحصرة فى القانون الا فى ظروف مخصوصة ومؤقتة

١٥ (مبحث تأمين العدالة القضائية) هل يكون العدل ماتراه الحكومة . أم مايراه القضاة المصون وجدانهم من كل مؤثر غير الشرع والحق ومن كل ضغط حتى ضغط الرأى العام .

(١٦) (مبحث حفظ الدين والآداب) هل يكون للحكومة ولو القضائية سلطة وسيطرة على العقائد والضمائر أم تقتصر وظيفتها في حفظ الجامعات الكبرى كالدين والجنسية واللغة والعادات والآداب العمومية على استعمال الحكمة ما أغنت عن الزواجر ولا تتداخل الحكومة في أمر الدين مالم تنتهك حرمته .

(١٧) (مبحث تعيين الأعمال بقوانين) هل يكون في الحكومة من الحاكم الاكبر الى البوليس من يطلق له عنان التصرف برأيه وخبرته . أم يلزم تعيين الوظائف كلياتها وجزئياتها بقوانين صريحة واضحة لاتسوغ مخالفتها ولو لمصلحة مهمة الا فى حالات الخطر الكبير

(١٨) (مبحث كيف توضع القوانين) هل يكون وضعها منوطاً برأى الحاكم الاكبر أو رأى جماعة ينتخبهم لذلك . أم يضع القوانين جمع منتخب من قبل الأمة لأنهم أدرى بحاجاتهم وما يلائم طبائعهم

وصوالحهم ويكون حكمه عاما أو مختلفاً على حسب تخالف الأقوام وتغير الظرف والزمان.

(١٩) (مبحث ماهو القانون وقوته) هل القانون هو أحكام يحتج بها القوي على الضعيف. أم هو أحكام تتساوى لديها كل طبقات الناس وله سلطان نافذ قاهر مصون من مؤثرات الاغراض والشفاعة والشفقة محترم عند الكافة مضمون الحماية من قبل كل أفراد الأمة

(٢٠) (مبحث توزيع الاعمال والوظائف) هل يكون ذلك مخصوصاً بأقارب الحاكم أوعشيرته أو مقربيه. أم توزع كتوزيع الحقوق العامة على كافة القبائل والفصائل ولو مناوبة مع ملاحظات الاهمية والعدد بحيث يكون رجال الحكومة انموزجا من الأمة أوهم الأمة مصغرة. وعلى الحكومة ايجاد الكفاءة والاعداد ولو بالتعليم الاجبارى.

(٢١) (مبحث التفريق بين السلطات السياسية والدينية والتعليم) هل يجمع بين سلطتين أوثلاث في واحد. أم تخصص كل وظيفة من السياسة والدين والتعليم بمن يقوم بها باتقان ولا يجوز الجمع منعاً لاستفحال السلطة.

(٢٢) (مبحث الترقي في العلوم والمعارف) هل يترك للحكومة صلاحية الضغط على العقول كي لا يقوى نفوذ الأمة عليها. أم تحمل

على توسيع المعارف بجعل التعليم الابتدائي عموميا بالتشويق أو الاجبار ثم التوسيع مسهلا. وجعل التعليم والتعلم حرا مطلقاً.

(٢٣) (مبحث التوسيع في الزراعة والصنائع والتجارة) هل يترك ذلك للنشاط المفقود في الأمة. أم تلزم الحكومة بالاجتهاد في تسهيل مضاهاة الأمم السائرة لاسيما المزاحمة والمجاورة كيلا تهلك الامة بالحاجة لغيرها أو تضعف بالفقر.

(٢٤) (مبحث السعي في العمران) هل يترك ذلك لاهمال الحكومة أو انهما كافيه. أم تحمل على اتباع الاعتدال المتناسب مع الثروة العمومية بدون التفات للتفاخر بالتزينات البلدية الغير مفيدة ماديا.

(٢٥) (مبحث السعي في رفع الاستبداد) هل ينتظر ذلك من الحكومة ذاتها. ام نوال الحرية ورفع الاستبداد رفعاً لا يترك مجالا لعودته من وظيفة عقلاء الأمة وسراتها.

هذه خمسة وعشرون مبحثا كل منها يحتاج إلى تدقيق عميق وتفصيل طويل وتطبيق على الأحوال والمقتضيات الخصوصية. وقد ذكرت هذه المباحث تذكرة للكتاب ذوي الألباب وتنشيطا للنجباء على الخوض فيها بترتيب اتباعا لحكمة اتيان البيوت من أبوابها وان اقتصر على بعض الكلام فيما يتعلق بالمبحث الاخير منها فقط

أعني مبحث السعي فى رفع الاستبداد فأقول.

(١) الأمة التى لا يشعر كلها أو أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية .

(٢) الاستبداد لا يقاوم بالشدة إنما يقاوم باللين والتدريج

(٣) يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد

هذه قواعد رفع الاستبداد وهى قواعد تبعد آمال الاسراء وتسر المستبدين لان ظاهرها يؤمنهم على استبدادهم ولهذا أذكرهم بما قد أنذرهم به (الفيارى) المشهور فى مثل هذا المقام حيث قال لا يفرحن المستبد بعظيم قوته ومزيد احتياطه فكم من جبار عنيد جندله مظلوم صغير . وإنى أقول ما من جبار قهار الا ويأخذه الله أخذ عزيز منتقم ثم أقول .

مبنى قاعدة كون الأمة التى لا يشعر أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية . ان الأمة التى ضربت عليها الذلة والمسكنة حتى صارت كالبهائم أو دون البهائم لا تسأل قط عن الحرية وقد تنقم على المستبد ولكن طلباً للانتقام من شخصه لا طلبا للاخلاص من الاستبداد فلا تستفيد شيئاً إنما تستبدل مرضا بمرض كمغص بصداع . وقد تقاوم المستبد بسوق مستبد آخر فاذا نجحت لا يغسل هذا السائق يده إلا بماء الاستبداد فلا تستفيد أيضا شيئاً إنما تستبدل

مرضا مزمنا بمرض حدّ. وربما تنال الحرية عفواً فكذلك لا تستفيد منها شيئاً حيث لا تلبث تلك الحرية أن تنقلب إلى استبداد مشوف اشد وطأة كالمريض إذا انتكس.

ومبنى قاعدة أن الاستبداد لا يقاوم بالشدة إنما يقاوم بالحكمة والتدريج هو ان الوسيلة الوحيدة الفعالة لقطع دابر الاستبداد هي ترقي الامة في الادراك والاحساس وهذا لا يتأتى إلا بالتعليم والتحميس كما أن اقناع الفكر العام واذعانه إلى غير مألوفه لا يتأتى إلا في زمن طويل لان العوام مهما ترقوا في الادراك لا يسمحون باستبدال القشعريرة بالعافية الا بعد التروى المديد وربما كانوا معذورين لانهم ألفوا أن لا يتوقعوا من الرؤساء والدعاة إلا الغش والخداع.

ثم إن الاستبداد محفوف بأنواع القوات التي منها قوة الارهاب وقوة الجند لاسيما اذا كان الجند غريب الجنس وقوة المال وقوة الألفة على القسوة وقوة رجال الدين وقوة أهل الثروات وقوة الانصار من الاجانب فهذه القوات تجعل الاستبداد كالسيف لا يقابل بعصا الفكر العام ومن طبع الفكر العام إنه إذا فار في سنة يفور في سنة وإذا فار في يوم يفور في يوم بناء عليه يلزم لمقاومة تلك القوات الهائلة مقابلتها بما يفعله الثبات والعناد.

الاستبداد لا ينبغي أن يقاوم بالعنف كي لا تكون فتنة تحصد الناس

حصداً على أن الاستبداد قد يبلغ من الشدة درجة تنفجر عندها الفتنة انفجاراً طبيعيا فاذا كان في الأمة عقلاء يتباعدون عنها حتى اذا سكنت ثورتها نوعا قضت وظيفتها في حصد المنافقين يستعملون حينئذ الحكمة في توجيه الافكار نحو تأسيس العدالة وخير ما تؤسس يكون مع من لاعهد له بالاستبداد ولا علاقة له بالفتنة. العوام لا يهيجون على المستبد غالباً الا عقب أحوال مخصوصة فورية . وهي . أولا . عقب مشهد دموي مؤلم يوقعه المستبد على مظلوم يريد الانتقام لناموسه . ثانياً. عقب حرب يخرج منها المستبد مغلوبا ولا يتمكن من الصاق عار الغلب بخيانة بعض القواد. ثالثا . عقب تظاهر المستبد باهانة الدين اهانة مصحوبة باستهزاء يستلزم حدة العوام. رابعا . عقب تضييق شديد عام مقاضاة لمال لا يجده حتى أواسط الناس. خامسا . في حالة مجاعة لا يرى الناس فيها مواساة ظاهرة من المستبد . سادسا . عقب مايستفز الغضب الفورى كتعرضه لناموس العرض أو حرمة الجنائز في الشرق وناموس القانون أو الشرف الموروث في الغرب. سابعا. عقب حادث تضييق يوجب تظاهر قسم كبير من النساء فى الاستنصار . ثامنا . عقب ظهور موالاة شديدة من المستبد لمن تعتبره الامة عدواً لشرفها الى غير ذلك من الأمور المماثلة لهذا.

المستبد مهما كان غبياً لا تخفى عليه هـذه المزالق ومهما كان عتياً لا يغفل عن اتقائها. كما ان هذه الأمور يعرفها أعوانه ووزراؤه فاذا وجـد منهم بعض يريدون له التهلكة يهورونه على الوقوع في إحداها ويلصقونها به بشهادتهم عوضاً عن إبعادها عنه بالتمويه على الناس ولهذا يقال ان رئيس وزارة المستبد أو رئيس قواده أو رئيس الدين عنده هم أقدر الناس على الايقاع به وهو يداريهم تحذرا واذا أراد اسقاط أحدهم يوقعه بغتة.

ومبني قاعدة انه يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد (هو ان معرفة الغاية ولو اجمالا شرط طبيعي للاقدام على كل عمل) لـكن المعرفة الاجمالية في هذا الباب لا تكفي مطلقاً. بل لا بد من تعيين المطلب تعيينا واضحاً موافقا لرأى الكل أو لرأي الأكثرية التي هي فوق الثلاثة أرباع عدداً أو قوة بأس والا فلا يتم الأمر حيث اذا كانت الغاية مبهمة نوعا يكون الاقدام ناقصا نوعا واذا كانت مجهولة بالكلية عند كل قسم من الناس أو مخالفة لرأيهم فهؤلاء ينضمون الى المستبد فتكون فتنة شعواء واذا كانوا يبلغون مقدار الثلث فقط فتكون الغلبة في جانب المستبد مطلقا. ثم اذا كانت الغاية مبهمة في الاول فلا بد ان يقع الخلاف في الآخر فيفسـد العمل أيضاً وينقلب الى فتن صماء وانقسام مهلك. ولذلك

يجب تعيين الغاية بصراحة وإخلاص واشهارها بين الناس والسعي في اقناعهم واستحصال رضائهم بها بل حملهم على النداء بها وطلبها من عند أنفسهم . وهذا سبب عدم نجاح الامام علىّ ومن وليه من أئمة آل البيت رضي الله عنهم ولعل ذلك كان منهم لا عن غفلة بل عن صعوبة المواصلات وفقدان البوستات المنتظمة والمطبوعات اذذاك

والحاصل أن من الضروري تقرير شكل الحكومة التي يراد ويمكن أن يستبدل بها الاستبداد وليس هذا بالامر الهين الذى تكفيه فكرة ساعات أو فطنة آحاد بل ليس هو بأسهل من الفكرة في ترتيب المقاومة وهذا الاستعداد الفكري النظري لا يكفى أن يكون مقصوراً على الخواص بل لا بد من تعميمه ويبتدي ذلك بعد احساس الأمة بآلام الاستبداد ولاشك ان الفرد المتحمس في شأن عمومي مثل محاربة الاستبداد يعد العشرات والمئات وربما الألوف على حسب قوة براهينه . ثم لما يستفيض بين الأمة البحث في القواعد الاساسية السياسية المناسبة لها بحيث يشغل ذلك أفكار كل طبقات الأمة ويبقى تحت مخض العقول سنين وأعواما حتى ينضج تماما وحتى يبتدى ظهور التلهف الحقيق على نوال الحرية فى الطبقات العليا والتمنى في الطبقات السفلى وحتى يشعر المستبد بالخطر ويأخذ التحذر الشديد والتنكيل وحتى تحصل أو تستحصل الفرصة المناسبة . فحينئذ

تكون الأمة قد استعدت طبيعيا لقبول أصول ان تحكم نفسها بنفسها وحينئذ لها الخيار ان شاءت تكلف المستبد ذاته لاستبدال أصول الاستبداد بالأصول المقررة المهيئة التي تطلبها وترى نجاحها فيها والمستبد في تلك الحال لا يسعه الا الاجابة طوعا أو كرها وهكذا يتم السير الطبيعي ولا مبدل لسنته فليتبصر العقلاء وليتقي الله المغرورون ولا ييأس من رحمة الله عاقل غير خامل .

وانى أختم هذا البحث بأن الله جلت حكمته قد جعل الأمم مسؤوله عن أعمال من حكمته عليها وهذا حق فاذا لم تحسن أمة سياسية نفسها أذلها الله لأمة أخرى تحكمها كما تفعل الشرائع باقامة القيم على القاصر أو السفيه وهذه حكمة ومتى بلغت أمة رشدها استرجعت حرها وهذا عدل وهكذا (لا يظلم الله الناس بل الناس هم أنفسهم يظلمون)

تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه

اعلان

﴿من المطبعة الجمالية﴾

الكائنه بحارة الروم بعطفة التتري نمره ٩ : بتوفيق الله تعالى وعونه قد تم لنا تأسيس المطبعة المذكورة على أكمل استعداد وقد أحضرنا لها جملة ما كينات للطبع والتجليد من الطرز الجديد وقد أعددنا لها الكميات الوافرة من سائر اجناس الحروف الاسلامبولية والمصرية والافرنكية ذات الشكل الجميل والرونق الجليل مع كامل الادوات وأننا مستعدون لقبول المقاولات لطبع الكتب العربية العلمية والافرنكية كبيرة كانت أو صغيرة بشكل وبدونه بأجرة معتدلة مع المحافظة على مواعيد المقاولات: وكذلك أعددنا الاصناف الكثيرة من الورق اللازم لطبع الكتب والدوسيهات والكرت فزيت والجوابات والاظرف والكمبيالات والفواتير وخلافه فمن رغب المقاولة على طبع الكتاب وورقه وتجليده فله ذلك مع الاعتماد على أن أسعار الورق عندنا هي أرخص قيمة من اسعاره الموجودة فى السوق لاستحضارنا إياه من معامله فى أوروبا رأساً والخبرة أعدل شاهداً ما

﴿اصحاب المطبعة﴾

(محمد أمين الخانجى الكتبي وشركاه — واحمد عارف)

2678

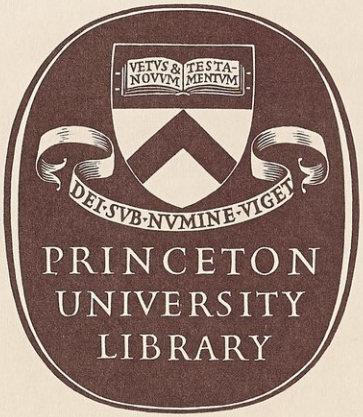
VETVS & NOVVM TESTA-MENTVM
DEI·SVB·NVMINE·VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

WERT
BOOKBINDING
Grantville, Pa
JAN-FEB 1991
We're Quality Bound

Princeton University Library
32101 075568186